

حَدِيثُ شَامِلٍ

عن

وَجُودِ اللَّهِ

تأليف

محمد عبد الظاهر عبد الرحمن

كلية الطب البشرى

جامعة اسيوط

اهداءات ٢٠٠١

اد. محمود حبيب
جراح بالمستشفى الملكي المصري

حَدِيثُ شَائِلٍ

عَنْ

وُجُودِ اللَّهِ

تأليف

محمَّد عبد الله بن عبد الرحمن

كلية الطب البشري

جامعة أسبوط

بينق الله الرحمن الرحيم

تقديم

للاستاذ الدكتور محمد سلام مذكور

استاذ ورئيس قسم الشريعة بكلية حقوق القاهرة (*)

ذات يوم في صيف عام ١٩٦٨ اتصل بي شاب لم يسبق لي معرفته وطلب مني أن أحدد له موعداً للقاء . وعلمت من حديثه أنه طالب بكلية طب أسبوط . وأن موضوع المقابلة يتصل بمسألة علمية يريد أن يتحدث معي بشأنها . وكعادتي من الاستجابة لسكل لقاء على ورغبتي في تشجيع المشتغل بالعلم استجبت له . . فجاءني وإذ بي أمام شاب حديث السن ضئيل الحجم . . واسع الافق يتميز بهدوء العبارة وسلامة الأسلوب مع محاولة الدقة في العبارة . . وميل واضح إلى النواحي الفلسفية . مما جعلني أتساءل عن سر انجازه إلى القسم العلمي والتحاقه بكلية الطب مع ما يبدو فيه من صلاحية للدراسات الادبية . فأجاب بأن هناك فكرة تسيطر عليه من بدء دراسته في الثانوي وهي اثبات وجود الله الذي لا شك فيه عن طريق العقل والعلم والكائنات وأنه صخر نفسه للالتحاق بالقسم العلمي ليأخذ حصيلة تمكنه من هذا البحث العلمي والتحق بكلية الطب ليتعرف عن قرب أثر تكوين الانسان وما فيه من أجهزة دقيقة في التأكد من وجود الله وحده . . وهكذا كان الحديث الأول بيني وبينه . فشدني هذا التفكير من ذلك الناشئ الصغير إلى أن أطيل الجلسة وأن أستمع إلى أفكاره

(*) مقرر موسوعة ناصر الفقيه ورئيس لجنة الشريعة بالمجلس الاعلى للشئون الإسلامية وقد مثلي جمهور يتنا في عديده في المقترحات والمواقف الإسلامية الناجحة .

قلت وما هي المسألة العلمية التي تريد أن تتحدث معي بشأنها فأجاب باني منذ فترة طويلة وأنا مستغرق بالتفكير والبحث فيما اتجه اليه من اثبات وجود الله عن طريق الميتافيزيقيا والفلسفة وعن طريق البحث المجرد عن كل عاطفة والذي يلتزم بمحدود التفكير العقلاني وحده حتى تكون فيه قوة دافعة لانتزاع لباطل واشياعه فرصة الادعاء والاقراء .

واستطرد قائلاً أتني بعد طول دراسة وبحث استطعت أن أكتب مذكرة قد تصلح أن تكون كتاباً في الموضوع وقد طرقت ابواباً عديدة وأخذت وعوداً كثيرة من كثير من الشخصيات حول تشجيعي دون أن أجدهم لنا نتيجة حتى ولا بالتوجيه العلمي ولما سمعته ممن اتصلت بهم من تشجيعك لنا شتتين بالتوجيه والارشاد .

فذكرني ذلك بنفسى حينما كنت ناشئاً في مستقبل الحياة وكنت متطلماً طموحاً وكنت شغوفاً بالأدب والاجتماع وتراجم زعماء الفكر وقادته .
وحينما بدأت أتطلع للنشر بمجريدة الأهرام وبعض المجلات وأنا طالب في نهايه المرحلة الابتدائية فأوصدت في وجهى بعض الابواب والنوافذ ووجدت منفذاً إلى بعضها الآخر حيث نشرت لى الأهرام في ذلك الحين كما نشرت بعض المجلات الدينية مما كان له أكبر الاثر في نفسى وبما كان دافعا قويا لى في السير قسماً لاشباع هوايى ودراسى

كما ذكرنى هذا الشاب الناشئ وهو يحدثنى عن الوعود التى سمعها دون أن يرى لها حقيقة وما بدا على ملامحه وهو يحدثنى عن ذلك من حسرة والم بما صر بى وأنا صغير ناشئ منه وقد وجدت مقالتي وافكارى طريقاً إلى كثير من الصحف والمجلات دون أن تعرف هذه الصحف والمجلات عن الكاتب

حوى اسمه وحيثما استهوأنى أن ادرس حياة السيد جمال الدين الافغانى والكاتب
 عنه وأنا طالب بالثانوى وقد ملأت هذه الدراسة كل اوقات فراغى وتشجعت
 به واتصلت بعملية القوم فى ذلك الحين من رجال الفكر والسياسة من المصريين
 وغير المصريين وقت بدافع من قوة الشباب وحامسه إلى تشكيل لجنة بمن
 اتصلت بهم لاحياء ذكرى السيد جمال الدين الافغانى فتساقبت الصحافة الى
 تلقى اخبار هذه اللجنة وكنت مع حدة سنى المتحدث باسمها وفى ذات يوم
 ذهبت بنفسى إلى احدى الصحف اليومية السيارة التى كانت تنشر لى كل ما
 أرسله اليها من مقالات او اخبار عن اللجنة المذكورة لاقدم لهم مقالا واظهر
 لهم نفسى ليتعرفوا على شخصى كما تعرفوا على اسمى من قبل ولما دخلت بطاقتى
 الى رئيس التحرير فسرطان ما اذن لى بالدخول ولما رآنى استندى حاجبه
 قائلا انا اذنت للاستاذ مذكور بالدخول فكيف تأذن لغيره . . قلت بدورى
 انا ياسيدى - مذكور - فنظر الى وقال انت الذى تكتب وتشر لك وانت
 الذى تتحدث باسم لجنة احياء ذكرى جمال الدين الافغانى - قلت باعتراف
 وفخر : نعم ياسيدى وهذا مقال آخر اقدمه بنفسى لجريدكم الغراء للنشر .
 لكنه دون أن ينظر فى المقال ولا أن يأذن لى بالجلوس ردها لى بنفس قائل
 لا يوجد بالجريدة فراغ لنشرها . وطلب منى الانصراف . فخرجت وكلى
 الم وحسرة هذه المقارنة الغريبة .

وذكرنى ايضا حديث هذا الشاب الناشئ بواقعة أخرى حينما أخرجت
 كتابا بعنوان جمال الدين الافغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق وقد قدم
 له المرحوم . مصطفى عبد الرازق (باشا) ونشر ذلك الكتاب ووصلت
 إلى رسالة من أديب كبير من لبنان يخبرنى بقدمه إلى القاهرة ويطلب
 منى لقاءه بندق الكوتنتال وكان ذلك فى عام سنة ١٩٣٧ . ليعرض

على رغبته في أن يسهم معي في اخراج كتاب آخر حول هذا الموضوع .
وفي الموعد المحدد ذهبت اليه وأنا أكاد أظهر فرحاً وكلّ أمل وتطلع فلما مثلت
أمامه وقدمت له نفسي نظر إلى نظرة كلما عجب أولعها به ثم وقال « شؤات
مذكور صاحب الكتاب » فقلت بكل فخر واعتزاز نعم ياسيدي وقد جئت
بناءً على خطابك لي وكان الخطاب معي (وما زال عندي) وبعد فترة قصيرة في
مقياس الزمن لكنها طويلة في نفسي ودون أن يأذن لي بالجلوس تمكّن من
مجلسه ووضع قنما على الأخرى وأخبرني بأنه قد عدل عن فكرته وأذن لي
بالانصراف . فانصرفت مبتلئاً حسرة والمأ نافقاً على صغر سنّي وعلى تطلعي
وطموحي ...

ثم تذكرت لقاء المرحوم مصطفى عبد الرازق (باشا) لي في منزله العاصم
وفي مكتبته الفسيحة خلف سراي عابدين وقد رحب بي واستمع إلى حديثي
وأعطاني من وقته الكثير وقرأت عليه جملاً من كتابي وقبل مشكوراً أن يعلي
على مقدمة لهذا الكتاب حتى أنساني هذا اللقاء الجليل أنني بحضرة عالم كبير
وأزال من نفسي كل المهابة والخسوف انطلقت معه في الحديث ثم تذكرت لقاءه
لي بعد أن أخرجت الكتاب وذهبت اليه لاهديه له في منزله وقد كان
وزيراً للاوقاف وكان معه جملة من الوزراء وبعض كبار رجال حزب
الاحرار الدستوريين فقام واستقبلني من على درجات السلم (السلامك) فأكبرته
في نفسي ايما اكبار وقدرت الموقف فتعجلت الانصراف محافضة له على وقته .
وهكذا التاريخ يعيد نفسه . . رأيت نفسي في أيام شبابي أولئذني
حينما سمعت بحديث هذا الشاب الناشئ فكان هذا دافعاً قوياً لأن استجيب
له واعمم لحديثه وأعطيه من وقتي ما يشبع رغبته فقرأ على الكثير مما
كتب ووجهته الى كذير مما يحتاج الى التوجيه وناقشته فيما يحتاج الى مناقشة

وهمت جامعاً على الايصم بما صدمت به من قبل وأن افتح أمامه أبواب الامل والتطلع والطموح ورحم الله عمر بن عبد العزيز حينما جاءه وفد ليعرض عليه امرأ ما فانتخبوا واحداً منهم هو أصغرهم فقال عمر بن عبد العزيز - هلا تحدث من هو أسن منك فقال له المرأ بأصغريه قلبه ولسانه فكانت مثلاً .

تردد على الفتى الناشئ محمد عبد الظاهر مرات ومرات وفي كل مرة يقرأ على شيئاً من كتابته ثم طلب مني أن اكتب له مقدمة لهذا الكتاب . فرجبت دون تردد وأنا لا ادعى اننى قرأت الكتاب كله او بتعبير أدق انه قرأ على كل فصول الكتاب ولكن الكتاب بين يدي القارىء يتحدث عن نفسه ويحكم عليه القارىء بما يحكم وأنا لا يعني إلا أن أقدم صاحب الكتاب . وأن آخذ بيده ليسير قسماً نحو طموحه وتطلعه وإني آتمنى له أن يكون قد وفق فيما كتب وأمل تكون لكتابه أثر في توجيه الناشئة إلى إيمان كامل ودقيقة ثابتة وخاصة بالنسبة لهذا الجيل المتطلع إلى البحث والدرس والقراءة في الموضوع :

صدق الله العظيم : (وفي الأرض آيات للمؤمنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فقد جمعت هاتين الآيتين من آيات الله المعجزات الكونية والنفسية القاطمة بوجود الله وقدرته ولعل ما كتبه الشاب الناشئ يدور في فلك هاتين الآيتين ،

دكتور

محمد سوسم مذكور

حدائق الزيتون في أول يناير ١٩٦٩

فلسفة الزمن والزمكان

مقدمة

بادئ ذي بدء، وبينما أقدم لقراءتنا الأجزاء كتابي الأول أود أن أكتب
الخطوط العريضة للحياة كما أراها :

فالحياة عقيدة ثم عمل .. والعقيدة هي أساس العمل وهي النافع إليه ..
والعمل هو وسيلة العقيدة وأدائها والحياة على الأرض أيضا ممكن ثم زمن ..
وللمكان خطره وأهميته ولزمن قيمته ووزنه .. فنحن في حياتنا تتأثر بالمكان
و تؤثر فيه .. كما أن مسيرة الزمن تنهى وجودنا من هذا المكان وتنفى كل
أثرنا فيه .

وأعني بذلك أن ثمة مسيرة زمنية معينة .. في مكان ما تحتوي
الانسان (اقلئ يؤثر في ذلك المكان وذلك الزمن بأعماله التي يقوم بها)
إستناداً إلى عقائد معينة يؤمن بها ..

فإذا ما كانت عقيدة الانسان قوية ونابذة كانت بواحث أعماله أصيلة
وغير مصطنعة وكان الانسان إنساناً قوياً صلباً ... مؤثراً في المكان الذي
فيه أيا كان ... مالكا لزمام الزمان الذي يدور به أو يجلس به من هوالم
الزوال والفناء إلى عالم الخلود والبقاء .

أما إذا كانت عقيدة الانسان ضعيفة يخطئها الوهن ... وتعدو عليها
هاديات الفناء فإن الانسان يعد في نظري ميتاً وهو حي ... ومهما كان أو تكون
مطامسه أو أهدانه أو مثله في هذه الحياة .

ذلك أن دورة الزمن سلفى أثره ... كما سلفى كل آثاره ... ومتبقى
لنا أو علينا المعاني والقيم ولن تبقى سواها .

ومدركاً ذلك كله . . . عدت إلى تقديم هذا الكتاب لآخوتي من بني
البشر . . . لأبين لهم طريقة من طرق التفكير العقلاني المتحرر من العاطفة
ومن الوم ومن الخرافة . . . النقي من الجدل المقيم والسفسطة الكلامية الغير
مجدية . . . الباحث مجدية لا تعرف العبث وباهتمام لا يعرف الإهمال له
سبيلاً . . . عن مستقبل الإنسان ومصيره الأبقى بعد هوالم الزوال والفناء التي
يعيش فيها في دنياه .

راجياً المولى جل وعلا أن يهدي به قلوب حارت وضلت إلى نوره الأسمى
وإلى صراطه المستقيم والله حسبي فنعم المولى ونعم الوكيل :
ومن ذلك أرجو أن أوضح لقرائنا الأعزاء دوافعي إلى تقديم هذا الكتاب
ومنهاجى فيه .

وحينما أتحدث عن الواقع فأننى أذكر بصدق وصراحة أننى لا أعرف على
وجه التحديد لحظة زمنية بدأت بعدها فى الاهتمام بالفكر المصيرى . . كما أننى
لا أدرك على وجه الحسم واقعا إلى هذا الاهتمام أكثر من كونه اهتمام بما هو
جدير بالاهتمام من مصير الإنسانية الحقيقى . غير أن ما أدركه بوضوح ظواهر
معينه لهذا الاهتمام تبرز فى تلك المناقشات المستفيضة التى كانت بينى وبين أخى
الأكبر والذى يحمل نفس إسمى منذ أن كنت فى الصف الرابع من المرحلة
الابتدائية وكان هو وقتها يدرس كطالب فى كلية المعلمين لقد استمرت مناقشاتنا
تلك إلى أن التحقت بالمدارس الثانوية والتحق أخى الأكبر بقسم الدراسات
العلمية فى الفلسفة وعلم النفس . . أيضا كانت هناك مناقشات فى نفس الوقت مع
أصدقائى والى استمرت حتى وقت قريب . . وكانت تعبر أو تظهر مبلغ اهتمامى
بالفلسفة المصيرية . . كاهتمام حقيقى يشغل كل الفكر والجهد . . وما زلت أذكر
تلك الليالى الساهرة وتلك الجلسات المحففة التى كنت أشغلها فى مناقشة جادة

مع أصدقائي : أحمد حماد ، حسن محمد سالم ، أحمد عسكر ، محمد مروان ، وكان مظهرنا في البحث مظهر من يبحث عن مستقبله الحقيقي بجدية لا تعرف الإهمال وبوضوحه لا يعرف البعث لها سبيلا .

كما أنني ما زلت وبكثير من السعادة أذكر هذه المناقشات الجادة الموضوعية التي كانت تدور في كلية الطب مع أساتذتي فيها الدكتور نبيل عفت والدكتور محمد مندور والدكتور أحمد نصر حول ما يمكن أن نعرف به إنسانيا وتكنولوجيا من الطب على بطلان المزاعم الملحة .

وهكذا كانت حياتنا السابقة التي ما زالت في مسيرتها وما زال هذا الاهتمام بمصير الإنسانية ينبض به قلبي ليجري في الدم قوياً ...

ومن المنهاج . . قد عدت إلى تقسيم الكتاب إلى مباحث يتحدث أولاً عن الفكر وأهميته ويتحدث الثاني عن الوضع الراهن في هذه الحياة والمذاهب المتضاربة في العالم حول الأيديولوجية المصيرية ويتحدث الثالث والرابع والخامس عن الأدلة القاطعة علمياً وعقلياً التي تثبت وجود الله وتنفى وتحمي أقوال الملحدين ويتحدث السادس والآخر عن الثغرات التي قد يثيرها المضللون حول وجود الله وما يمكن أن يرد به عليهم إحداهما لفتنة ومقاومة للشر والاشهاد .

ولعل - وهذا أمل - قد وقعت في أن أظهر الحقيقة واضحة جلية أمام إخوتي من بني البشر - ولعل أيضاً قد ساهمت بهذا الجهد المقل في دفعهم إلى التفكير والاهتمام بمصيرهم الحقيقي . . يوم لا ينفع مال ولا بنون . . إلا من أتى الله بقلب سليم .

المؤلف

م . هـ . عبد الله محمد ع

المبحث الأول

دعوة إلى الفكر

نروى الأساطير أن جماعة يشكلون دولة أو شبه دولة كانت تكرم الحكام كراهة شديدة وتعتبرهم رمزا للانانية وحب النفس . . . وكانوا لذلك يتركون الحاكم بحكم كما يشاء سنة واحدة وسواء عدل وأصلح أو ظلم وأرهمى فانهم بعدها يمزقونه من جكه ويلقونه في غابة مليئة بالوحوش والموام حيث يكون هلاكه محققا .

وهكذا تماقت الأيام على هذه الجماعة ومع كل عام يمر تشهد الانسانية مصرع أحد حكامها بين برائن وحش مفترس وبدون مراحة أو شفقة . . . وبدون ماتغير في تلك المادة العجيبة عند هؤلاء القوم .

حتى جاء حاكم عاقل فطن فما أن تولى الحكم حتى نظر بين الاهتمام إلى تلك الثغابة الموحشة فأشاع الأمن والسلام بين ريعها حتى أضحت جنة خضراء مزهرة وحتى أضحت في غاية من الروعة والجمال وبعد عام ذهبوا به ليلاقى حظه فاذا بهم في واقع الأمر قد ذهبوا به إلى جنة نعيم .

ويستوى عندي أن تكون هذه الرواية قد حدثت بالفعل أو انها من أطياف الخيال لكن الاى أعنيه منها ثلاثة أشياء . .

الأول : أن أولئك الذين لم يفكروا في مستقبلهم أو في أمنه وسلامه

كان الهلاك لهم حتماً محتوماً تماماً كما تموت الطيور المسنّانة التي لا تفكر في حد السكين إلا عندما يتقاطر به دمها وتنتهي به حياتها
الثاني : ذلك الذي آمن التفكير في مستقبله استطاع أن يحصل على الأمن والسلام في حاضره ومستقبله .

الثالث وهو الأهم : أن هناك تشابهاً وثيقاً بين الإنسان في حياته وبين هذه الأسطورة على غرابتها ، فنحن نعيش في تجمعات بشرية فوق سطح كوكب الأرض المعلق في الفضاء والذي يدور بنا دورات منتظمة حول ذلك النجم الجبار الذي يسمونه الشمس وهذا الكوكب السيار يجذبنا إليه . . ويدور بنا حول نفسه . . ويدور بنا حول الشمس . . كل ذلك في الفضاء اللانهائي . . وبدقة كاملة . . وبتوقيت لا يخطئ .

وعلينا نحن أن نفكر وأن نسأل أنفسنا . .

لماذا يجذبنا هذا الكوكب السيار إليه ألا نه يشفق علينا أن نضيع في هذا الفضاء اللانهائي ؟ . . أو أنه يريد بنا أن يحتفظ بمظهر هامر وجميل ؟ ... أولا هذا ولا ذاك ولكن قوة جبارة أمرته بذلك فأطاع راضياً أو كارها .

لماذا يدور بنا هذا الكوكب حول نفسه ؟ . . لأنه يريد للبشرية أن تنقسم الليل والنهار فيما بينها كتموضع العدل ونبراس الأمانة .

لماذا يدور بنا هذا الكوكب حول الشمس . . ورجال العلم يقولون لأن الشمس تجذب الأرض إليها
ولكن . .

هذه الشمس المضيفة لماذا تجذب كوكب الأرض إليها . . هل كان بينهما

علاقة عاطفية قديمة يحافظان عليها على مر الأيام دون أن ينقضا أى منهما أو يسلك ما سلوك غادر أو لثيم .

وعلى هذا الكوكب السيار نجد أنفسنا مغمورين فى بحر لى من الهواء ... نموت إذا ما ذهبنا عنه بعيداً فصدورنا تعلوا وتنخفض مع كل دفعة منه تدخل حاملة عوامل الحياة ... أو تخرج وبين طياتها عوامل الموت والفتاء ... أليس علينا أن نسأل أنفسنا كيف استطاع هذا الكوكب الأرضى أن يحصل على هذا البحر العجى من الهواء ... أكان فى ذلك ما هراً أكان فى ذلك داهية محتالا ... أم أنه أعطى ذلك من قوة عظمى دون ما مهارة لديه أو جهد مبذول . ومن حولنا نجد الأنهار الجارية ... التى منها تروى غلة الفلا وأهلها يعيش وبدونها لانكون لنا حياة ... ولقد فكر كذلك هل أدرك كوكب الأرض بذكائه حاجتنا إلى الماء السلسيل نجرى به الأنهار ... وإلى بحار واسعة ومحيطات شاسعة ... أم أن ذلك كان بتدبير قوة عظمى نشكر لها هذا التدبير ونحمدها عليه .

كل هذه وتلك ظواهر كونية وطبيعية يجب ويلزم للضرورة التى لا تنفصلها ضرورة أن يفكر الانسان فيها ويتدبر منها ما يعينه على ادراك حقيقة وجوده على هذه الحياة وبالتالى ما يعينه على سلوك السبيل الأمن الذى يحفظ له الأمن والسلام والراحة حاضراً ومستقبلاً .

ولقد تتجلى ضرورة التفكير فى صورته الحية فى اولئك الذين كان عليهم فرضاً وواجباً أن يتفهموا الطبيعة بكل ظروفها حتى ينفذوا بذلك أنفسهم من هلاك عاجل وسريع ... ولقد تتمثل ذلك الانسان الأول الذى أحاطت به عوامل الموت كاملة وظاهرة ... تمكن فى الجوع والبرد والقارس الزمهرير وتظهر نفسها فى آكلات اللحوم من الوحوش المفترسة التى لا تتوانى عن تمزيقها

كلما وانتهى الفرصة إلى ذلك أوفى نائلت السم من الزواحف والمهام التي
تساجله بالمنية في ليل مظلم عبوس أوفى كهف كئيب .

ولم يقرر ذلك الانسان بالقل أن يفكر ... بل هو قرر بالفريضة أن يفكر
وأن يحصل من نتائج فكره على سلوك آمن ... يبقى عليه حياته ويدبراً عنه
عوامل الملاك .

وذلك ما يماثل تماماً الحركة العصبية اللاارادية التي تطلق عليها
« الفعل المنعكس » التي تحدث إذا ما لامس طرف من أطراف الجسم
الانسانى مادة ملتهبة أو جسمًا جادًا فانه سرعان ما يرتد عنها بعيداً ودون
ما تدخل من قواه العقلية ودون ما أمر منها .

وأعني بذلك أن الفعل اللاارادى المنعكس تقوم به أطراف جسم الانسان
دون أن يقرر هو القيام به ... كذلك فان المواجهة السريعة للاخطار المحدقة
بالانسان يقررها الانسان تلقائياً ... إذ أنه لايجد بداً من اقرارها لإرضاء
لغريزة حب البقاء التي قررها رجال العلم في النفس الانسانية واستطراداً من
هنا المقام ... يفكر الانسان في كل ما يجلب عليه مزيداً من الرضاية في
حاضره وفي كل ما يعطيه مزيداً من الأمن في مستقبله المرتى ... أو
مستقبله البعيد .

ووصولاً عبر الزمن إلى جيلنا الحاضر فان ما ذكرناه آنفاً يتجلى في كل
ما يشيده الانسان من حضارة ... فهو مثلاً يقيم السدود على الأنهار ليحصل
على غذاء أو فروعيش أرغد . وهو أيضاً يبادر إلى الدفاع عن نفسه أو تدعيم
سبل الدفاع عنها تأميناً لسلامته حاضراً ومستقبلاً ... وهنا أيضاً يكون
التفكير وتكون ضرورته الملحة ...

وهنا يجب أن يكون التفكير ممتداً بغير حدود وبغير نهاية ومركزا على المستقبل الحقيقي الذى نعى به ذلك المستقبل الذى يبدأ بتلك النقطة الزمنية التى تنتهى عندها حياته .

وإذا كنا بصدد ذكر الظروف والملابسات التى تحيط بالإنسان فى حياته والتى توجب عليه التفكير فى مستقبله الحقيقى فافتنا نجد أن هـلينا أن نذكر وأن نعى شيئين هاميين :

الأول : أن الإنسان يعيش على سطح الكرة الأرضية ويوصف بصفات الأحياء من حركة ونمو وإدراك ، وإحساس ... فترة من الزمن قد تطول أو تقصر ثم بعدها تنتهى هذه الحياة بالنسبة له وتسلم منه صفات الأحياء ويصير فى عرفنا ميتاً لا يتحرك .. لا ينمو ... لا يحس ... لا يفكر ... ولا يدرك ... ومن الثابت حتى الآن أنه ليس هناك من البشر من استطاع أن يتجنب الموت أو يتعاشاه ... ولقد أدركت البشرية ذلك منذ القدم ... ونعى به شعراؤها وحكمائها .

فقال أحدم :

كان ابن أثى وإن طالت سلامته يوما على آفة حسبه محمول

وقال آخرون :

الأكل حى هلك وابن هلك وقو نسب فى المالكين عريق

الثانى : وإذا كانت حياة الإنسان على الأرض محدودة بزمان محدود ... فما أجدره بالتفكير فى مصيره ومستقبله بعد هذا الزمن المحدود ... إن

المستقبل الحقيقي^(١) للانسان لا يبدأ إلا بتلك النقطة الزمنية التي تنتهى عندها حياته . . . ومن ثم كان لزاما عليه أن يعتمد أول ما يعتمد في حياته إلى التفكير في هذا المستقبل تفكيراً جدياً وبدون عيب .

لقد استطاع الحاكم الماقل الفطن الذى أوردته الأسطورة القديمة التى صدرنا بها الكلام أن يحصل على الامن والسلام فى حاضره ومستقبله حينما فكر فى مستقبله وأمن التفكير وعلينا نحن إذا ما كنا نطلب الامن والسلام للحاضر الذى نحياه والمستقبل الغامض الذى سنجد أنفسنا فيه أن نفكر وأن نؤمن التفكير بمجدية لا تعرف العيب وباهتمام لا يعرف الإهمال له سبيلا .

وإذا كنت قد ذكرت فى مواضع عديدة أن التفكير فى المستقبل الحقيقى يجب أن يكون تفكيراً جاداً وبدون عيب . . . فما ذلك إلا لأننى رأيت وسمعت الكثير عن رجال يفكرون فى مستقبلهم الحقيقى وكأنه أمر لا ينعينهم ولا يهمهم وهؤلاء لا يفكرون إنما هم يعيشون - ذلك أن التفكير فى المصير الانسانى له مقوماته وله شرائطه التى سنتناولها تفصيلاً فيما بعد . . . (هذا فضلاً عن أولئك الذين لا يفكرون إطلاقاً) فى مستقبلهم الحقيقى ويسكنون مجرد التفكير فيه .

ولقد أجد لزاماً على أن أبدي رأياً فى أولئك الذين ينصرفون كلية عن التفكير فى مستقبلهم الحقيقى وحيث أن هؤلاء قد قدوا كل مقوماتهم

(١) السنوات القادمة فى حياة فرد ما - لا أعتبرها مستقبلاً وإنما هى حاضره متقدم . . . أما المستقبل فأننى أقصره على حياة ما بعد الموت . . . ذلك أن الانسان يقطع رحلة فى حياته نحو الموت وسواء كان مرفهاً أو معذباً فى هذه الرحلة فإن رحلته هذه تنتهى بشئ معلوم ثم تواجه الشئ الجدير بالاهتمام وهو الموت وما بعده .

الانسانية وأنهم قد أستهانوا بمقدراتهم وعبروا بها ، وعلى الجملة فأنهم قد ظلموا انفسهم ظلما بيّنا .

ذلك أن الاسماك فى بحورها والطيور فى أجوائها والوحوش فى أوكارها ، والموام فى أدغالها وأعراشها تمش وتنهض بهام حياتها فتسعى للحصول على قوتها وتتناسل وتحافظ على نوعها عاما كما يفضل الانسان وحيثما نعلم نحن أن الانسان يفكر فأنها هى أيضا تفكر ^(١) وبجديّة من أجل الحفاظ على حياتها أو الانتصار على أعدائها أو حتى من أجل المدوان أما حيثما نقرر نحن أن الانسان يفكر فى زمان ما بعد الموت فإن ذلك يعد بمثابة التفريق بينها وبين الانسان أنها كما هو المعروف لا تفكر لا فى حاضرها الذى تحياه فإذا ما تخلى انسان عن التفكير فى شأن ما بعد الموت فإنه يعد متنازلا عن انسانيته بل ويجب الحاقه بأية قصيدة يختارها من فصائل الحيوان أو الطير فإن شاء صار من الارانب وان شاء صار من الضفادع او من ضفادع الطير . وإذا كان الاستاذ العقاد يقول فى شعره

ليس أضنى لفؤادى	من عبوز تنصباى
ودمىم يتحالى	وعليم يتفابى
وجهور يملأ الارض	سؤالا وجوابا

فأننى لا اجد أضنى لفؤادى من ذلك الانسان الذى تخرج عليه الشمس ثم لا تلبث ان تغيب ويحل به الليل بظلامه ونجومه ، وبعده النهار بنوره وضياؤه ، ويرى البرد ويسمع صف الهمود ، وبين حين وحين يرى

(١) التفكير المقصود تفكير غريزى

و يسمع افين اخوته من بنى البشر الذين بلغت بهم مسيرة الزمان لحظة الزمان
المرجة ، لحظات الموت ، لحظة بدا المستقبل الحقيقى ولقد يحمل اخاه على
كتفه ، ولقد يحنوا عليه التراب بيديه ، وهو يدرك ان مسيرة الزمن لا بد ان
تبلغ به لحظة النهاية لحياهه او لحظة البداية لمستقبله الحقيقى ، ثم لا يثير كل
ذلك فى نفسه تساؤلا حول مصيره بعد الموت ، او يدفعه إلى فكر جاد فى
مستقبله او من اين الى اين يذهب .

انه حينئذ يكون اضنى الاشياء للفؤاد ، واكثرها اثمارة للأسف والاستياء
أما ذلك الذى يعتر بانسانيته ويرى لزما عليه ان يفكر فى مستقبله الحقيقى
فأنى اقول له : بان تفكيرك يجب ان يكون جاداً ومتحرراً من العاطفة
ومن الوهم

وحينا أقول بالجدية فى التفكير فأنى اعنى أن يكون التفكير موضوعيا
وليس القصد به الدخول فى دوامة جدلية مفرغة تفهى بلاشئ أو تفهى بمزيد
من الحيرة والبلبله ... أن مثل هذا التفكير الجدلى لا يفيد بقدر ما يحدث من
الضرر .. وبقدر ما يبدد طاقة الانسان ويضاعف من شكوكه والآمه ..
إن القنى يربط نفسه ومصيره ومستقبله الحقيقى وقيمه ومقوماته بالجلد والسفسطة
الكلامية .. يكون كظاىء يجرى خلف السراب ليرتوى .. والماء
يجرى حوله بمنة ويسارا .. يفكر .. وهذا شئ حسن ولكن بغير جدية وبغير
عناية وبغير اهتمام وبغير موضوعية .. تمام كأن ذلك المستقبل أمر لا يسيبه
ولا يوجب اهتماماً أو عناية منه

وحينا أقول بتحرير الفكر من العاطفة على شئ أنواعها ..
فأنى اذكر أن العاطفة ليست معياراً صادقا للحقيقة .. ولكى
يكون ذلك واضحا : اذكر أن كثرا من البشر ممن يدينون بالبيان

البوذية^(١) ، يحرقون أنفسهم أحياء ، من أجل بوذا الذى يعتبرونه إلها . ولا شك أن هذا العمل ، شحنة ضخمة من عاطفة الحب الولاء ، ولو كانت العاطفة مقياسا للحقائق لكانت هذه الفئة من الناس على حق مطلق ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن كثيرا من البشر ممن يدينون بالبيانات المساوية يحطم الواحد منهم رأس بوذا دون ما عاطفة أو انفعال ، ولو كان الأمر بالعاطفة لما استطاعت البشرية أن تجد لها طريقا واضحا صادق المعالم بين من يحطمون بوذا ، ومن يحرقون أنفسهم من أجل بوذا .

وإذا كان الأمر كذلك فإن على أخى الإنسان الذى يحترم إنسانيته ويفكر فى مستقبله الحقيقى ، والذى يهتم بهذه التفكير ويعنى به ويجهله تفكيراً موضوعياً وليس منسطة كلامية أو جدل عقيم ، عليه أن يحرر فكره تحريراً كاملاً من جرائم العاطفة على شتى أنواعها .

وحينما أقول بتحرير الفكر من الوهم والخرافة ، فأنى أعنى ذلك التعصب الأعمى الذى نهض كسمة سوداء من سمات عصرنا هذا ، ذلك أن الطفل ينشأ فى هذا الزمان ، وربما فى كل زمان على مبادئ محددة يلتفتها له أبويه .

وحينما يشب هذا الطفل عن الطوق ، ويصبح إنساناً ورجلاً فى هذه الحياة ، فإن ظلام التعصب الأعمى لتراث آبائه وأجداده غالباً ما يعنى هيبته ويصم أذنيه ، وغالباً ما ينسبه البحث الحر المستنير من مصيره الحقيقى ، ولو كان التعصب لتراث الآباء والأجداد طريقاً إلى الحق ، لتهدمت الطرق وتتناقضت ولما وجدنا فى العالم حقاً ولا حقيقة وأود وأن أؤكد بقوة -

(١) العقيدة البوذية تنهض على أساس عبادة شخص حكيم يدعى بوذا وهى نوع من الوثنية منتشرة فى الهند وبورما وبلاد أخرى .

أن التعصب لتراث الآباء والأجداد بدون تفكير جاد حر مستنير ، متحرر من العاطفة ، هو في حقيقة الأمر إمتنان لانسانية الانسان ، وتضييع لمقدراته لا يدانيه في ذلك حتى ذلك الانسان الذي يختار علانية أن يترك الانسانية بأثرها ليلحق نفسه بفصيلة الضفادع أو الثعالب أو الكلاب ، وبرغم احترامى لماطفة الأبناء نحو آبائهم بل وتقديرى لتلك العاطفة ، فأنى أسكرر أنه ما لم يضع كل إنسان ينشد السلامة والأمن لمستقبله الحقيقى ، ما لم يضع الانسان في نفسه ، إنه من المحتمل أن يكون آلاؤه على باطل ، ما لم يطعم ذلك في حسبانته فان من العبث فهو المسئول أن يطلق على نفسه صفة الانسان ، فضلا عن صفة المفكر الجاد .

تلك هي مبادئ في التفكير ، وتلك هي التزاماتى فيه أوضحها وأبين حدودها بينما أوجه دعوة للتفكير إلى اخوتى من بنى الانسان لتفكر في مصيرنا وم مستقبلنا الحقيقى ، عسانا نحصل على أمن الحاضر وسلامة المستقبل فلنفكر معافى قضيتنا المصيرية الاولى فلنفكر معافى هذا السؤال الكبير الذى كان وما زال ولن يزال يلح على قلوب الناس وفي عقولهم :

هل هناك حقا إله عظيم أوجد الكون ومن فيه سيرجنا بعد أن نموت وينسل المحسنين من الذين آمنوا جنته ، ويعذب الذين كفروا به في الحياة الدنيا ؛ وينزلهم النار ؟ فلنفكر معافى هذا السؤال الكبير ، وفي قيمته الكبيرة وما من شك في أن البشرية قد اختلفت كثيراً في الاجابة على هذا السؤال ، وما من شك في أن الناس قد ذهبوا فيه مذاهب شتى فهناك منهم من يقول : إن الله هو الذى أوجد العالم ومن فيه وهو الذى سيرجنا بعد الموت أحياء ،

وهو الذى سيعاسبنا على اعمالنا إن خيراً فنجراً أو شراً فشرّاً ،، وهناك أيضاً من يقول أننا آتيناً إلى العالم صدقة وسنمضى من العالم كما آتيناً صدقة وليس هناك شيء اسمه الله ، كما ان الأديان كلها من اختراع البشر وأن الدين افيون الشعوب ، وقبل ان اذكر البراهين العقلية القاطعة التى تثبت لكل عاقل ومفكر ان الله موجود وحى اود ان نلقى مما بنظرة ماهرة إلى الحياة التى نعيشها وإلى الوجود الذى نعيش فيه .

المبحث الثاني

نظرة إلى الحياة

هيا إذاً نلقى نظرة طابرة على هذا العالم ، على هذه الكرة الأرضية التي مازالت حتى كتابة هذه السطور ، تدور وتدور ونحن معها ندور حول شمس قد توهجت وأشرقت وأضاءت ومن حولنا يشرق البدر وضاءاً جميلاً . وأود أن تكون نظرنا الأولى إلى المعتقدات ، أو إلى الأيدولوجية المصيرية كما أسميها وكما أود أن أسميها الناس جميعاً ، ذلك أن كثيراً من الناس يأخذون الدين مأخذ الهزل ، ويمتبرونه عبارات تردد ، وطقوس تكرر وتعاد ، ثم لا شيء بعد ذلك . أما لو أخذ كل إنسان في اعتباره أن العقيدة أو الدين هو الشيء الذي سيتوقف عليه مصيره ، ومستقبله الحقيقي ، فإنه حينئذ سيفضل أن يموت ألف مرة ، قبل أن يخل بعتيدته التي آمن بها أو يعبث بأحكامها .

وإذا كانت هناك حكمة تقول (لا بد مما ليس منه بد) فأننى أيضاً أقول لا بد لذلك الذي يؤمن بوجود الله القوى القادر الذي خلقنا ويرجئنا إليه أيماناً حقيقياً معتقداً بحق أن مستقبله الحقيقي متوقف على سعيه لإرضاء الله ، لا بد له أن يبذل كل جهد ممكن للحصول على رضا الله ، وكل طاقة يملكها في تجنب غضبه أو سخطه .

ذلك لأنه يعتقد ويؤمن أن في التزامه بطاعه الله أمان لمستقبله الحقيقي ،

الذى يحرص كل الحرص على أمانه .. مستشراً في ذلك أنه إنما يرجو الخير
لنفسه قبل أى اعتبار آخر .

وإذا ما نظرنا إلى الأيديولوجية المصرية في عالمنا هذا فإن صورتين متناقضتين
تتراءيان لنا في غير مالبس أو غموض : الصورة الأولى صورة جموع بشرية
يؤمن كل فرد منهم أن ليس هناك إله خالق وأن الدين وسيلة الضعفاء وعزاؤهم
وأنه إنما أتى إلى العالم بالصدقة البعثة .. وأنه سيعيش فيه بقدر ما يستطيع .
فاذا أنتصرت عليه عوامل الفناء فإنه سيموت .. تماماً كما تتوقف الآلة عن
العمل حينما تلتصر عليها عوامل التعرية .

وإذا كانت الصورة تبدو أكثر وضوحاً بعد إضافة بعض التوش
فأنى أذكر :

- في المقام الأول : هناك وبالعجب إناس في العالم ما يزالون يربطون
أيديولوجيتهم المصرية بالاصنام والاثاث ويعتقدون أنها هي التي خلقتهم وإليها
سيرجعون ، وهؤلاء لن أتعرض لهم في كتابي هذا ، أنهم أحقر شأن من
أن يضمهم كتابي بين دفتيه .

غير أننى اكتفى بالقول بأن هذه الوثنية قد لطخت جبين الانسانية
بالمار زماناً طويلاً . إذ أن العقل لا يقبل عل الإطلاق أن يعبد الحى ميتاً
أو يعبد الانسان حجراً .. كأن التلب والوجدان والضمير الانسانى ، وكل
ما يرجع إليه الانسان في سلوكه من قيم أو مثل عليا ، لا يمكن أن ترضى من
الانسان وهو يحى هيامته لجبر أجسم متفيدة أنه بذلك يكون آمناً في
ما يحيط به ومستقبلاً

وهناك من الناس يعبد الشجر أو يعبد الأنهار الجارية أو يعبد الأنيران والبقر أو يعبد الشمس والقمر ، وكل ذلك ضروب من الوثنية لأجد الحديث عنها إلا ضرباً من الجدل المقيم ، بعد أن أدرك الإنسان بقله أن مصيره ومستقبله الحقيقي شيء آمن من أن يضيقه راضياً مختاراً . ومهما كانت ومهما تكون الأسباب والمبررات .

- في المقام الثاني اذكر أن أولئك الذين لا يؤمنون بوجود الله يتهبزون فيما بينهم إلى ثلاثة مذاهب .

أولاً : المذهب الشيوعي ويتركز بوضوح في جمهوريات الاتحاد السوفيتي وفي معسكر الدول الشيوعية كما أن هذا المذهب الشيوعي يفتشر بدرجات مختلفة في كثير من دول العالم ، ولن أتحدث عن الشيوعية كنظام اقتصادي فإن ذلك متروك في تقديرى لرجال المل والاقتصاد لكننى ساتناول الشيوعية في كتابي هذا من وجهها الديني كنظام يقوم على اللادين وعلى الكفر بوجود الله وعلى اعتبار أن الدين أفيون الشعوب .

وأود أن أبين للانسانية جمعاء أن هذا كله محض اقراء وتضليل وأن أولئك الذين دفعهم السخط على المجتمع الرأسمالي إلى الكفر بالاديان وإلى الكفر بوجود الله قد أسرفوا على أنفسهم وعيشوا بمقدراتهم وبمستقبلهم الحقيقي من أجل الحاضر وسعادة الحاضر ففقدوا بذلك الامن الحقيقي للحاضر والمستقبل .

وأود أن أقول تكراراً أن حياتنا على الأرض حاضرة أو حاضر متقدم نسميه نحن جوازاً بالمستقبل ، أما مستقبلنا الحقيقي الذى يجب أن نحرص كل الحرص عليه فهو المصير بعد الموت ، ذلك المصير الذى يجب أن نفكر ونؤمن الفكر في أمنه وسلامته ،

أما بالنسبة لأولئك الذين يقولون بانتهاء الحياة بالموت وأن الموت نهاية لكل أنواع الحياة وأنه ليس هناك أى نوع من أنواع الحياة بعد الموت ، فأننى أطلب منهم أن يكون التفكير في مصير ما بعد الموت تفكيراً أكثر جدية ، إذ أن المصير شئ يعبر عن كينونة الانسان في زمن ، ولا يفترض مقدماً كونه حياً أو ميتاً ولكنه يبحث في هذه الكينونة ويقررها ، ثم يبحث في الوسيلة الأحسن لمواجهتها .

ثانياً : المذهب الوجودى الملحد وهو قليل الانتشار في هذا العالم ولكنه شديد الخطر عليه إنه وبدون مبالغة أخطر على العالم من النجاس ، وأشد فتكاً بالفكر العالمى المستنير من الطاعون .

ولقد حاولت مرة ومرات أن افهم شيئاً عن الايديولوجية المصيرية لهؤلاء القوم ، وخصوصاً أنهم اتخذوا لهم عاصمة هي باريس ، وملكاً هرجان بول سارتر ، وملكة هي سيمون دى بوفوار .

وقرأت كثيراً عن الملك والمملكة كما قرأت لها كثيراً ، وكل ما خرجت به من قراءاتى أن المملكة وكذلك الملك ورعيته لا يؤمنون بوجود الله ، ومع ذلك وبرغمه يؤمنون بالقيم والمثل الانسانية .

ولقد لاحظت في عقيدتهم شيئاً عجيباً ، ذلك بأنهم يؤمنون بأن الانسان مسئول عن نفسه فحسب أمام ضميره مسئولية مطلقة ، ولقد يعجبك هذا الكلام ، ولكن ، لاى غاية يسمى الانسان ، وأى شئ يمكن أن يكون هدفه ، هناك لا تسمع منهم إلا كلمات جافة جوفاء لا تحمل معنى ..

كما أن آثار الحيرة والاضطراب تبدو واضحة في كل كلمة تلقى بها أفواههم

وقصارى ما يفتخرون به أنهم يفتشون الكمال ، وأنهم لا يرضون عن أنفسهم ، وأن قوموطا من السمك المتوحش يطاردون على الدوام فى نومهم وفى يقظتهم .

ولا أريد أن أطيل فى وصف هذا المذهب ولا فى وصف القاسمين عليه ولكننى أرجو ألا تتخدع البشرية بالسراب وبالزيف وبالألوان البراقة الذى يثيرها المضللون والمزيّفون حول المثل والقيم والخط المثالى السلوكى ، فان اتباع الخط المثالى السلوكى فى الأخلاق الانسانية شئ ، والبحث عن المستقبل الحقيقى للانسان شئ آخر والخلط بينهما جريمة كبرى فى حق الانسان وفى حق مصيره ومستقبله الحقيقى . ولقد يبلغ بنا الانفعال ذروة الغضب حينما نتذكر كل هذا العبث بالقيم الانسانية ، وكل هذه المغالطات لفكر الانسانى ، كأنما يريد أولئك العابثون أن يطفئوا نور الحق فى العالم ويوقدوا مكانه للباطل نارا ونيرانا وكأنما يريدون أن يضعوا أمام كل عين منظارا أسودا يحجب عن العيون نور الحقيقة ويظهر لها أشباح الباطل .

ولقد أحاول بكل جهد أملكه وبكل طاقة أستطيع بذلها أن أظهر لآخوتى من بنى البشر أن لكل منهم فى هذه الحياة ، وفوق كوكب الأرض للسيار خمسة إيديولوجيات ^(١) ، تؤثر كل منها فى الأخرى وتتأثر بها لكنه يجب أن ينظر إلى كل منها على حدة وبدون إهمال .

أولا : الأيديولوجية المصيرية : وهى التى يبحث الانسان بموجبها عن مستقبله ويفكر فيه وهى التى تميز الانسان كما أسلفنا عن الأرانب والتعالب والفتران وبنات آوى .

(١) الأيديولوجية كلمة مركبة من مقطعين ايديا ، يولوجى ومعناها علم ، فكرة وأقصاها الخط النفسكبرى العام أو أساس التفكير .

ثانيا : الايديولوجية العلمية : وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى اكتساب العلم والمعرفة عن كل ما يحيط به ، وكذلك إلى محاولة الابتكار والاختراع في أى مجال وبأى وسيلة .

ثالثا : الايديولوجية الصحية : وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى الحفاظ على حياته على الأرض إلى أهد زمن ممكن ، أهني تلك الايديولوجية التي بموجبها يحاول أن يقوى بليانه إلى أقصى حد ممكن وأن يجنب نفسه إلى أسباب الفناء بكل ما يستطيع .

رابعا : الايديولوجية الاقتصادية : وهي التي يحاول الانسان بموجبها أن يحسن مستوى معيشته وأحواله المادية بكل جهد ممكن وبالوسائل التي يراها شريفة وملائمة .

خامسا : الايديولوجية العاطفية : وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : العاطفة الأخلاقية . وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى التزام خط مثالي ، أخلاقيا أو إلى التمسك بقيم أخلاقية معينة كالكرم ، والحلم والمفوضية المقدرة وحلم جرا .

القسم الثاني : العاطفة الاجتماعية : وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى تكوين وبناء علاقات اجتماعية سليمة ، وإلى تأسيس وتكوين رابطة مناسبة بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه .

القسم الثالث : العاطفة الجنسية : وهي التي يسعى الانسان بموجبها إلى إشباع حاجاته الجنسية بالوسيلة التي يراها مناسبة .

وهذه الأيديولوجيات الخمس مترابطة ومتصلة ببعضها اتصالا شديدا بحيث لا يمكن بأى حل أن تفصل إحداها عن الأخرى . غير أنها في

اتصالها تبقى متميزة واضحة المعالم ، ولكن ما أريده أن يكون واضحا
للإنسانية جمعاء .

أن المنهج الشيوعي يخلط بين الايديولوجية الاقتصادية وبين الايديولوجية
المصيرية بصورة خادعة ومثيرة ، أنهم يستغلون كل ما في النفس البشرية من
حب للتغيير ، وكل ما في نفس الانسان من عوامل السخط والتبرم ، ثم
بعدها يزعمون أن الدين هو الذي يعوق وصول الانسان إلى أهدافه وأمانه ،
أنهم يستغلون حب الفقير للمال ثم يعلنون له أن الدين هو الذي جعله يصمت
ولا يطالب لنفسه بحياة الأغنياء المترفين ثم هم يستغلون ما في النفس البشرية
من أحقاد وأطماع ، ويستثيرون شهوة القتل في نفس الانسان ، فيندفع
متعطشا إلى الدماء ؟ الحراء ، ثم ما يلبث أن يعود من مشهد الدماء المراقبة
وقد رفع أنفه ، وأحمرت عيناه فلا يرى ولا يسمع إلا مرأى المادة وصوت
رنينها ، ويعيش كما تعيش الآلة على حد زعمه ويهوت أيضا مثلها تبلى :

ولقد آليت على نفسي ألا أقحم هذا الكتاب في الجانب الاقتصادي
لشيوعية ، فذلك ما يستطيع رجال الاقتصاد أن يناقشوه بوضوحية ، ولكن
على الانسانيه جمعاء أن تدرك أن الشيوعية حتى ولو كانت تحقق لهم سعادة
الحاضر فانها لا تحقق أمن المستقبل الحقيقي ، وأنه لا يمكن ، بحال من
الأحوال أن نبذل أمن المستقبل ونستري بها سعادة الحاضر ولكن العكس
هو الصحيح وهو أن من الممكن أن نبذل سعادة الحاضر في سبيل أمن المستقبل
والشئ الأمثل هو أن نحافظ عليها معا . على سعادة الحاضر وأمن المستقبل .

ولقد كانت الشيوعية وما تزال رواية للباطل تحقق على ربوع الأرض روباها
خطيرا راح يهدد البشرية بسرطان قاتل ومميت .

كذلك فإن المذهب الوجودى الملحد يخالط بين الأيدولوجية المعصية وبين الأيدولوجية العاطفية خلطاً يثير الحيرة والشك والقلق ويبدد الطاقات الانسانية فى غير ما قصد جاد لتحقيق الحقيقة أو ادراكها .

ونكرر هنا لتأكيد ما ذكرناه آنفاً من أن الانسان يجب أن يرفض بحسم فكرة «الفكرة السائدة أو الايديولوجية الواحد» ، أو ما أطلق عليه وحدانية النظرة ، بمعنى أن أى ايدولوجية اقتصادية كانت أو عاطفية معينة يجب ألا تصدر كل الخطوط الفكرية الأساسية للانسان ، مدعية بغير مبرر أن هذه الايديولوجية هى الأم فى الحياة ، وهى التى تستحق فى رأيهم احتكار الفكر الانسانى ، وبذلك نجد لزاماً على الانسان ان يفكر فى كل ايدولوجية فى حياته تفكيراً جاداً ، والا يلغىها أو يقلل منها بدافع الاهتمام بايديولوجية أخرى فى هذه الحياة .

ثالثاً : المذهب اللامنطقى الملحد : وهو يجمع أشتاتاً من البشر تتجسد منهم بلية العالم كله أو يتجسد فى أشخاصهم اللامعقول فى كل العالم الحى ذلك أنهم لا يعتمدون على منطق أو حجة أو برهان بقدر ما يعتمدون على العناد والججاج والمراوغة ، وإذا ما حاولنا أن ننبه أحدهم إلى أنه إنما يبحث بمستقبله الحقيقى أسرع يقيم التحصينات والخطوط الدفاعية وأخذ يصكر ويفر ويردد الجمل والعبارات ، بطريقة تثير السخرية والأسف والاسى والغضب معا .

وهؤلاء لن أتعرض لهم فى كتابى هذا ، فهم قريبى الشبه بالوثنيين إلى حد بعيد ويكفى أن أعرض نماذج لهم فى مقامى هذا .

النموذج الأول : المذهب اللامنطقى الكسول وهؤلاء أناس شعارم

أنا لا أؤمن بشيء إلا إذا رأيته بعيني وما دمت لم أر الله بعيني فأنى لن أعبده وإذا قلت ألا يمكن أن تراه بين العقل وبين القلب يقول لك لا ومهما أتيته من بعد ذلك من حديث فانه لن يتغير رغم أننا تؤمن في هذه الحياة بوجود ما نلسم أثره .

النموذج الثانى : المذهب اللامنطقى العلمى الملحد وهؤلاء يتمسكون بالعلم ويزعمون أنه يتعارض مع وجود الله وبما أنهم يؤمنون بالعلم إذن فهم يكفرون بوجود الله . وقضية تعارض العلم مع وجود الله قضية مفتعلة سأتعرض لها بالتفصيل فيما بعد أما قضية أدعاء العلم فى قضية غير منطقية يبدو فيها الخلط واضحا بين الايديولوجية العلمية وبين الايديولوجية المصيرية .

النموذج الثالث : المذهب اللامنطقى المقلد = وهؤلاء أناس فتنوا برجال ملحدين وأعجبوا بهم ، فراحوا يقلدونهم تقليدا أعمى دون ما منطق أو فكر . تماما كما يقلد البيغاء أصوات من حوله .

أما الصورة الثانية : فهى صورة تلك الجروح البشرية المؤلمة التى تؤمن بوجود الله الواحد الأحد وترجو رضاه وتعتمد أنه هو الذى خلقها ، وهو الذى سيجمعهم ويمحاسهم على أعمالهم .

ولقد ترى الرجل منهم يخبر بين الكفر بالله وبين أن يلقى لاسد جائع أو وحش مفترس ، فلا يرتد عن الايمان قيد أنملة ويستطيع كل إنسان أن يتصفح التاريخ ليطالع فيه نماذج أو أمثلة لأولئك الذين ضحوا بأرواحهم وأنفسهم من أجل كلمة التوحيد والايان وماتوا وهم يرددونها رغم إثنائنا نعلم أنها يفوق الم الموت أو يدانيه .

وإن الانسان مهما وصف وأطال الوصف فلن يستطيع أن يصف ذلك المؤمن الذى صلبه الكفار ، ووقف فريق منهم بالنبال لينهلوا بها عليه ، وهو

يعلم تماما أن كلمة من فقه بلبذ إيمانه تنجيه من الموت . ولكنه يأبى ذلك قائلا :

ولست أبالي حين أقتل مؤمنا . . . على أى جنب كلت في الله مصرى وقصارى ما أستطيع قوله في المؤمن هو أن عقله قد أدرك أن مستقبله الحقيقي أهم من الحياة الدنيا التي سيفادها إن آجلا أو عاجلا . مهما طيل الزمن ومهما تملكأت مسيرة الأيام .

بعد هذه النظرة العابرة إلى جانب المعتقدات أو إلى جانب الایدولوجية المصيرية في كوكبنا السيار . أتذكر وأذكر أنني كنت أركب القطار ومسافرا من بلدى ومرتحلا في سبيل اكتساب مزيد من العلم والمعرفة . . وبينما كنت أسرح ببصرى تناملا في الأرض من حولي وقد تدرت يديها الأخضر الجليل ويزيده جمالا وروقا وحسنا وبهاءا طيور صنيعة راحت تخلق فوته . . وترنم فكأنما تصف ما تراه حينها من الجمال والروعة . . بينما كنت كذلك شق ممى أصوات استغاثة وهويل وإذ بالتيار تشب لسبب لا أهره في إحدى عربات القطار . . وبالرغم من أن التيار قد أخذت دین ما ضرر . . إلا أن سؤالاً راح يلح على عقلى . . أليس من المحتمل . . . أن تشب التيار مرة أخرى . . . وتلتهمنا جميعا وتنتهى حيانى على أعنف ما يمكن أن أنجبل . ثم . . أليس من المحتمل أن ينقلب بنا القطار . . . ونموت ونختفى من هذه الحياة ومن كل ضجيجها .

ووقر في نفسى أن الحياة هينة ورخيصة وليست بذات قيمة . . . وسريما ما ابتلع هدوء الجو وشاعريته هذا السؤال وثابت نفسى إلى الهدوء والسعادة . . . لسكن . . . مسيرة الأيام ما لبثت أن أثابت هذا السؤال في نفسى مرة أخرى . . .

وكانت في هذه المرة عنيفة كأقصى ما يكون العنف وبشكل يصعب على الخيال أن يحتويه ... وإليك ما حدث .

كان الوقت ليلاً ... والليل في قريتي هادئ وجبيل ... ولكن هدوء الليل تمزق ... فقد دوت في الجو ثلاث طلقات نارية ... اخترقت صدور رجل ما كان يدور في خلده أنه سيموت عما قريب ورأيناه وهو ملقى على الأرض صريعاً ... كانت حينها جاحظتان ومائلتان إلى أسفل ... وكان بريقهما قد انطلقاً ... وكان لعابه قد سال وهو ينال سكرات الموت حتى رسم خطأ على دقته ... وإيا له من خطأ .

ورنوت يبعثر إلى السماء فراغى مرآها ... وعاد السؤال المرعب يلح مرة أخرى : هل الحياة هينة ورخيصة وليست لها قيمة .. وأجبت نفسي حينئذ في قوة : نعم أنها أحقر وأقبح من جناح بعوضة وصاحت نفسي حينئذ هل كل من في العالم يدركون ذلك ... وكان أن أبلغ من اليأس مداه ... وصحمت وصاحت بي دموعي من الأسى رويدك نفسي لا تفنى مضاجعي .

وفي العام الماضي كنت أدرس تشرح الضفدة في المرحلة الإعدادية بكلية الطب حينما حل إلى أحد الأصدقاء ضفدة حية ورجاني أن أشرحها أمامه وبدون غدر ... وأمسكت بالضفدة المسكينة ... كانت ترتعد في يدي خوفاً وقرصاً ... كانت تنظر إلى نظرة توسل واستعطاف ورأيت نفسي أقول لها : يا ضفدعتي العزيزة ... لا تبكي ... ولا تمزني على الحياة ... فان نحتوى منها خيراً ... وأعلمي أن الموت نهاية كل حياة ... فلتندهي وإنا بك لاحقون وفي مطلع هذا العام كنت أدخل المشرحة مع زملائي

حيث ظالمنا الجثث الآدمية بمنظور يثير كل ما في الوجدان الانساني من إحساسات الأسى والحزن فما هو الانسان الذي كان في حياته يضحك ويمرح ويشمخ ويشمخ بأفقه فد أضى جيفة متعفة ، وهذا هو الانسان الذي هو أنا ، والذي هو أنت ، والذي كثيراً ما يقف أمام آراءه ، ممجياً بهريق عينيه وبشكله الانساني البديع ، وقد أضى الناظر إليه يملأ تفرزاً ، ويمس بالنصبة تقف في حلقة وبالحزن والاسى يملك عايه مشاهره .

ويعود السؤال الحائر أماننا إلى الظهور مرة أخرى ، وهو هل تدرك البشرية إن حياتها على الأرض حقيرة وقائمة في حد ذاتها وإذا كانت البشرية تدرك ذلك فهل شمتت سعيها وجدت في السعي من أجل مستقبل أمن ومستقر وذو قيمة يعوضها عن تفاهة الحاضر وآلامه ومصاعبه .

إن النظرة التي ألقيناها على الجانب العقائدي من حياة الانسان على الأرض تحوى إجابة مفصلة على سؤالنا هذا .

وأود أن تكون نظرنا الثانية إلى النفس البشرية وما ينازها من عوامل الخير والشر .

وهل للايمان بالله واليوم الآخر قيمة إيمانية في نهضة النفس البشرية وفي دفعها نحو فعل الخير وأبعادها عن الافضل الشريرة ، وهناك سؤال تقليدي يردده أولئك الذين يهتمون بتأديب الناس على أموالم وأرواحهم هو : ما هو الرادع الطبيعي عن فعل الشر .

ولقد يكون الرد التقليدي على هذا السؤال : العقاب والثوبة فتقاب من يفعل الشر ، ومكافأة من يفعل الخير هو خير رادع عن فعل الشر وخير دافع إلى فعل الخير ، ولله أجند رجال القانون في كل دولة يضعون العقوبات

المتخافة التي تردع الناس عن الشر ، ومن ثم يأمن الناس على أموالهم وأنفسهم غير أن هناك شيء غاية في الأهمية هو أن القوانين بكل ما تحويه من دوافع ومرغبات أشياء خارجية تشمل ظواهر الاحوال ومظاهر فقط ، إذ قد يحكم المنفنون للقانون على البريء بالعقاب ، وقد يحكم للذنب بالبراءة ، وفي واقع الامر ما انفكت المصائب الشريرة تهرب من القانون وتتحايل عليه حتى لقد أصبحت الانسانية تدرك جيدا أنه لا بد للانسان من دافع داخلي يلجئ به من ذاته ويدفعه عن فعل الشر إلى فعل الخير .

(وقد يقول قائل : وهل هناك في النفس البشرية ميل غريزي إلى فعل الشر) :

وجوابنا على ذلك أن الميل العدوانية في الانسان قد تتكون وتتمو نتيجة لتكرار الخبرة المؤلمة عند ذلك الانسان ، وقد تتحول إلى عقدة العدوان ضد مجتمعه الذي يعيش فيه أو ضد المجتمع الانساني بأسره ، ويتعين تبماً لذلك أن يكون في المجتمع الانساني من الدوافع والمرغبات ما يحمي به نفسه من المخترفين من أفرادها وأيضاً أن يكون في كل نفس بشرية ما يمكن ان نسميه بالخطوط الدفاعية ضد دواعي انحرافها إلى العدوان .

وفي ما أسلفنا من القول تتجلى حاجة الانسان كمفرد إلى الايمان بالله سبحانه وتعالى ، إذ انه بذلك يستطيع ان يحطم دواعي الانحراف في ذاته باطمئنان إلى المستقبل على امتداده وتمسكه بكل حقوقه المشروعة في حاضره ، وباستهانتة بالقيم الزائلة للحياة واستمداده الدائم لتضحية بها إذا ما كان في ذلك ما ينقذ الانسانية بأسرها من اخطار محدقة ، وفي ذلك نفسه تتجلى حاجة المجتمع ككل إلى الايمان المطمئن بالله والحرص على اتباع رسالة السماء .

وإذا فهناك الدليل القاطع على ان الميل الغريزي إلى فعل الشر موجود في فطرة الانسان ، وعلى ان الانسانية في سبيل الحاجة إلى رادع عن الشر

ودافع إلى الخير ينبع من ذاتية الانسان . ويتجاوب مع تلك الروادع والمغريات التي تضعها القوانين وتنظمها .

ومن الحقائق البسيطة التي لا تحتاج إلى كثير من الجدل اعتقاد الانسان في وجود حياة أخرى سيعاسب فيها على عمله وعلى بواعث أعماله ومقاصده منها أمام الله سبحانه وتعالى هو خير رادع عن الشر وخير مرغّب في الخير . ومن ثم كانت حاجة البشرية ماسة وشديدة في الايمان بوجود الله سبحانه وتعالى ومن ثم كان الحرص على ذلك الايمان ضرورة يدعو إليها كل حريص على البشرية مهم بأمنها وسلامها فيور على مستقبلها الحقيقي وإذا ما ذكرنا الدوافع إلى الخير وإلى الأعمال النobile فأنى أذكر أيضاً أن الايمان بالله واليوم الآخر أصل لكل فضيلة ولكل عمل خير .

وذلك الرجل المؤمن الذي يعلم تماماً في قلبه أن حياته لا تمتلئ إلا حاضراً أو حاضراً متقدماً ، وأن مستقبله الحقيقي هو بحسب ما يقدم من عمل خير لاشك أنه سيندفع في طريق الخير لا يلوى على شيء .

ذلك أن الايمان بالله واليوم الآخر يستلزم أن يعتبر الانسان نفسه على هذه الحياة ... تماماً كذلك الذي يجلس في لجنة امتحان ... والممتحن هو الله سبحانه وتعالى . ومادة الامتحان هي كل قدرات الانسان ... وكيفية تصرفه فيها طبقاً للصالح الانساني أو ضد مصالحه وأهدافه ..

ومن ثم فليس غريباً أن يكرس ذلك الذي يؤمن بالله كل ما يستطيع لنفع المجتمع الانساني . وليس غريباً أن يضحي بحياته في سبيل محو الشر والأشرار عن ذلك المجتمع . . . وفي سبيل صون ذلك المجتمع وحمايته من كل ما ضرر يهدده ولكن الغريب حقاً والذي بلغ من الغرابة أقصاها هو أن يضحي

إنسان بحياته وهو يعلم أن لا حياة له سواها . . . إذن أن مما يعتبره الانسان
بديهية أن لكل أكبر من جزئه فمثلا عدد طلبة جامعة أسيوط يزيد عن عدد
طلبة كلية الطب بجامعة أسيوط . . . وإذا كان الامر كذلك فأنى أستطيع أن
اقترض أن ذلك الانسان الذى يعتقد أن له حياة واحدة وأنه لا حياة لها له سواها
لن تكون غايته من حياته إلا أن يعيشها بكل دقة فيها وفى سعادة واسعة
وهنا فإذا ما حصل على تلك السعادة فإنه لن يضحى بحياته من أجل مزيد
منها أو من أجل مبدأ نبيل وإلا فإنه يكون مضحياً بالكل من أجل الجزء . . .
وهذا ما لا يستقيم مع طبائع الامور .

وأود أن أذكر أن طبائع الامور تدرك في الانسان حبه لنفسه وسميه القاتم
المستمر نحو كل ما يقدم له نفعا . . . أو يدفع عنه ضرراً ومن ثم قال اقدى يستقيم
مع طبائع الامور أن يحافظ الانسان على حياته ويستमित فى المحافظة عليها ، وإذا
ما كان الانسان يؤمن أنه لا حياة إلا حياته الدنيا وأنه يعيش إلى أقصى وقت
ممكّن ثم تنتهى حياته وصككاته شيء لم يكن . . . فإنه يكون سعيداً حين
يشمى كل ما حوله من طير وإنسان وحيوان . . . فى سبيل أن يعيش ويعيش
إلى ما لا نهاية . . . ولقد أعرف كثير من الناس يود أن يسهر إلى أهدافه ولو
على جثث أقرب الناس إليه وأعزهم لديه أليس مما يستقيم مع طبائع الامور
أن يود الملمد لو سار إلى أمه فى ألا يموت ولو على جثث الناس جيفاً ولقد
أسأل الملمد عن وجود الله فينكر أمامى وبدون ما حياه أو خجل وجود الله
القوى القادر . . . وأسأله حينئذ عن وجود الحياة الأخرى وينكرها أمامى
ويعلم بكل ما أوتى من قوة أن الموت نهاية الحياة ولا حياة بعد الموت . . .
وإننا تماماً مثل ما كينه من الحديد نصل حتى نبل . . . وحينئذ أسأله قائلاً :

وإذا فلائى هدف تعيش على هذه الحياة أو ماذا تريد من الحياة وأنت تعلم أن الم الموت ومرارته تجب وتمحى كل لفة كانت قبلها بل كل ماشعور بالسعادة والسرور عاشه الانسان فى حياته ... وأنت تعلم ان كل لحاظ سرورك سيكون ختام لما الموت بمرارته الى تداينها مرارة .

وهناك ايضا الخوف والترقب والقلق من المجهول فى حياتك الدنيا فيها هى الارض تدور حول الشمس كمحصة لقوتين قوة جذب الشمس للارض وقوة الطرد المركزية ... فنى يدريك ياخى قد تريد احدى القوتين على الاخرى او تزول احدهما من الوجود ... ولقد يردد العلماء بين الفينة والفينة ان الارض ستلتصق بالشمس فى يوم ما وستزول الحياة ... ولذلك فلايمان بالله ضرورة من ضرورات حياتنا نطلبها ونسمى ونجسد فى طلبها .. بكل ما نملك من قوة .

حتى نحظى بالحياة السعيدة المطمئنة وبالمستقبل الآمن المشرق . وإذا فلايمان بالله سبحانه وتعالى خير رادع للانسان عن فعل الشر وخير دافع له الى فعل الخير .. والايمان بالله جل وعلا هو من احسن الدعام التى يمكن ان يقوم عليها امن الناس على اموالهم وانفسهم وكذلك فهو ضرورى للانسان حتى تتمحى من حياته عوامل الخوف والترقب والقلق من المجهول .

ويعمل بدلا منها امن وامل يحققان للانسانية امز وافلى ماتطمح اليه . كل ذلك يبين قيمة الايمان فى الحياة ... وما دام انسان يطلب هذا الايمان - كضرورة من ضرورات حياته وامن حاضره فان من واجبه ان يبحث عنه بقله .

وأنى لى ثقة ان من يبدل الفكر غلصا .. فى صيدل البحث عن الايمان
بالله والبوم الاخر ... سيجده قريبا وبدون عناء .

والآن ساذ كر لكم البراهين العقلية القاطعة التى تدل على وجود الله
الواحد الاحد ... حتى تقربذلك عيون وتطمئن قلوب وحقى نزول
غيوم الباطل من قمس الحقيقة فيعود لها بهاؤها وروقتها ويمود للعالم
امنه وسلامه .



المبحث الثالث

الوجود كدليل عقلي قاطع على وجود الله

الوجود ، وأعني به كل ما هو موجود في هذه الحياة وفي هذا الكون اللانهائي ، من شمس وقر ونجوم وكواكب ، ومن أنهار وأشجار وبحار ، ومن مواد غازية وسائلة وصلبة ومن ممالك حيوانية ونباتية .

فهذا الالكترون الحائر الذي يدور حول ذرة أو ينتقل إلى ذرة أخرى ليربطها بذرته ، إنه مادة ، أو هو وحدة المادة التي تكون الوجود والذي نعنيه ونقصده .

وهذه الذرة من ذرات الكسوجين التي تنقل في دمي ودمك وتمنحني وتمنحك الحياة هو أيضاً مادة ، وهي أيضاً من الوجود ، وهذه القطرة من الماء التي تتحرك في قاع محيط أو على عمق قليل منه أو في عنان الجو هي من المادة وهي من الوجود الذي نتحدث عنه وقطرة الدموع الحائرة التي تنزل من عين طاشق ولمان متدرجة على خده مادة . . . وهي أيضاً من مكونات الوجود .

وهذا المصفور المفرد الحلي الذي يطير منتقلا من غصن إلى غصن ، مادة ، وهو من الوجود الذي أعنيه .

وعلى الجملة فأنني أعني بذلك الوجود كله بكل مكوناته وبكل صفاته وبكل مواده وطاقاته ، وبمد أن تأملنا هذا الوجود بكل مكوناته والتي قد تبلغ من الضخامة حداً لا يمكن تخيله ، أو قد تبلغ من الضآلة والصغر حداً بعيداً وساخناً ، أليس من المعقول أن نطرح على بساط هذا السؤال :
من أوجد كل هذا الوجود ؟

ومن أوجد كل هذه الموجودات ؟ ...

وفي رأي أن هذا السؤال مقول جداً ... بل إنه سؤال يفرضه علينا إنسانيتنا واهتزازنا بهمة الإنسانية وأن إهمال هذا السؤال وتغافله هو من الاتهام بمكان ... بالعقل البشرى وبالقدرات الإنسانية .

وإذا كان ماركس مؤسس المذهب الشيوعي الملحد يقول : الإنسان يتواجد أولاً .. ثم يحدد ماهيته بعد ذلك .. بمعنى أن الإنسان يأتي إلى الحياة كالحيوان يكتشف ذاته بينما لا يكتشف الحيوان ذاته . فأنى أقول ياسيد ماركس إذا كنت قد اكتشفت ذاتك .. ومقدر أنك على الحياة .. واكتشفت أن لك العقل الذى تفكر به وتعنى ما حولك واكتشفت أن حولك مواد حية ومواد ميتة .. مواد سائلة وصلبة ومواد غازية ... ألم يمر فى تفكيرك هذا السؤال وهو كيف تكونت هذه المواد ... ومن جاء بها الى الوجود .. ياسيد ماركس ... اليس من اكتشاف ذاتك على الأرض أن تفكر فيمن أوجد مادة جسمك والمواد التى تحيط بك على الأرض وهل ينبغى أو يليق بنا أن نفعل أو نهمل بحسنا فى مستقبلنا الحقيقى تحت شعار تخليص الفقراء أو الدمال من ذلك الظلم الحقيقى الذى قد يكون واقعاً عليهم من أصحاب الأعمال أو من الأغنياء . وهل هؤلاء الفقراء الذين يدعى السيد ماركس أنه يهمل البحث فى الايديولوجية المصيرية بسببهم .. ولاجلهم يعلن حكمة النيايى على كل الأديان السماوية بأنها أفيون للشعوب .. هل هؤلاء الفقراء يقبلون عقلانيا التخلي عن المستقبل الزمنى العريض بامتداده اللانهايى من أجل بضعة اموام قد تكون سعيدة .. وقد لا تكون .. يقضونها فى هذه الحياة .. وهم مجردين من كل دلالات الأمن والأمل فى هذا الزمان الذى تأتى مسيرته ومباشره بعد تلك النقطة الزمنية التى تنتهى عندها حياتهم كأفراد أو كجماعات .

وانا أفهم واعتقد أن طبقة المال في بعض البلاد الرأسمالية قد تتحمل كثيراً من أعباء المجتمع الصناعي الرأسمالي دون فوائده وهذا ظلم بين قد تكون الوسيلة الوحيدة لدفعه اشعال نار الثورة ضد المجتمع الصناعي الرأسمالي ونحويله الى مجتمع اشتراكي توزع فيه الأرباح والمخول على أسس عادلة .

غير أن الشيوعية التي ينادى بها السيد ماركس والتي تعرف بالمادية الماركسية أو المادية الجدلية تنادى أيضاً بـرد حركة العقل الى المادة وبأن تلغى الذاتية برد العالم ومن ضمنه الانسان إلى نظام يتكون من اشياء ترتبط ببعضها البعض بروابط كونية . ومعنى ذلك أن السيد ماركس ومن ينادى بإرائه من الماديين الجدليين والشيوعيين يستنكرون على الانسان أن يمتز بناته الانسانية وأن يبحث عن حاضر سعيد ومستقبل مشرق يحقق فيه هذه الذات ويدفع فيه عنها كل ضرر وعلى ذلك فأنى أرجو أن أبين للبشرية جماء هذه السخافات التي تقال عن ذاتيتهم البشرية ، كما أرجو أن أفند أمام البشر مزاعم وضلالات المادية الجدلية ، وكذلك مزاعم وضلالات الوجودية السارتريية ، غير أننى سأقصر حديثى في هذا الكتاب على مخاطبة أولئك الذين يعتزون بانسانيتهم وبذاتهم الانسانية المفكرة .

وإذا رجنا إلى السؤال المنطقي الذي وضعناه نصب أعيننا وعلى بساط البحث وهو من هو الذي أوجد المادة في الكون الذي نعيش فيه ؟

ولقد ذكرت في السابق من حديثي واحدة من البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان أو إثبات ، والتي يعرفها الانسان ويؤمن بها إيماناً عقلياً قاطعاً ، وهي أن الكل أكبر من جزئه مهماً كبر .

كذلك فأنى أذكر بديهية أخرى يؤمن بها الانسان إيماناً شديداً وثيقاً

بها ثقة مطلقة وهي أن كل صنعة لها صانع ، وكل شيء موجود لا بد له ، من موجد فالمنضدة التي أكتب عليها لا بد بداهة من صانع لها هو النجار .

ولقد آمنت البشرية على مرور الأزمان بتلك البديهية وتمسكت بها في ثقة وقوة ، بأنه لا يمكن لأى شيء أن يوجد بدون موجد له .

وأريد أن أخطب العقل الانساني الرشيد : هل هناك شيء يوجد بدون موجد له ، ولن نجد في الحياء شيئا يوجد بدون موجد مهما عددنا الأشياء وأطلقنا عددها .

ولقد اطلت في عرض هذه البديهية بصورة أخشى أن تكون مملة وما ذلك إلا لأننى كنت يوماً أناقش واحداً من الذين ينكرون وجود الله ومن ذلك النوع الذى أطلقت عليه المذهب اللامنطقي للمحد وكنت أقول له : ألا تعتقد أنه لا بد لكل صنعة من صانع ، فيرد على بكل برود ، لا ، لا أعتقد ، فربما كانت هناك صنعة بدون صانع ، وحينما أقول له إن العلم والعلماء ينادون بأن للسادة لا تقنى ولا تخلق من عدم ، وبأن الطاقة لا تقنى ولا تخلق من عدم ، كما إنك حينما تترك حجرتك خالية ومنقطة لمدة عام مثلا ، فإليك لن نجد شيئا ما بداخلها قد أوجد نفس من لا شيء .

وحينما أقول أن العلماء قاموا بمجهودات ضخمة ليثبتوا للعالم أنه ما من شيء يحدث الا كان وراء حدوثه عامل أو عوامل حية أو ميتة أثبتوا لنا مثلا أن تعفن اللحم يحدث نتيجة لنشاط البكتريا فانه يرد ببرود قائلا : من الممكن في يوم من الأيام أن تكتشف الإنسانية مادة صنعت من غير صانع .

وبالطبع لا أستطيع ولا أريد أن أرد على إنسان يقول لى ما شأنى بهذا الوجود ولماذا يظننى أن أبحث عن صنع هذا الوجود ؟ . . . ويعتقد أن من

الصواب أن نترك هذه القضية التي تحمل بين ثناياها قيمنا ومقدراتنا ولعل
وعسى أن تكشف البشرية في يوم من الأيام إنها كانت على باطل وأن الشيء
قد يوجد من اللاشيء .

بالطبع لا أستطيع ولا أريد أن أرد على هذا الانسان . . . وهذا ما
أشرت إليه آنفاً أنه الانسان اللامنطقي الجدل الملحد . . . وإنما يقود حياة
نافية لا قيمة لها .

ونعفى في قضيتنا المروضة على بساط البحث فنقول : ما انفكت عقولنا
الرشيطة تعلن لنا . . . إتنا في عالم يزخر بالسادة ويزدهم بها . . . وأن
الفضاء يزخر بالكواكب والنجوم والأقمار . . . وأن الأرض التي نتخذها
مسرحاً لنشاطاتنا لا تمثل في هذا الفضاء إلا حبة رمل . . . وما انفكت
عقولنا الرشيطة تعلن لنا في قوة وفي حزم أن لكل صنعة صانع . . . وأنه
لا يوجد الشيء من اللاشيء . . . وإذا : من هو القى أوجد المواد كلها . . .
والطاقات كلها .

من هو القى أوجد الشمس . . . تلك الكتلة الضخمة التي تعادل الأرض
ملايين المرات . . . من الغازات الملتهبة المتوهجة . . . التي تشع لنا الحرارة . .
حتى لنضج من حرها ونجمن على هذا البعد الشاسع . . . وتشع لنا الضوء حتى أن
الدين المجردة لا تحتمل النظر المباشر إليها مدة طويلة .

من هو الذي أوجد الأرض والقمر والسحاب والمطر والرمل والشجر .

من هو الذي أوجد طاقة الضوء التي تبصر بها الأشياء .

من هو الذي أوجد طاقة الحرارة التي تسبب لنا الهمى والنشاط .

من هو الذى أوجد لنا ذلك كله وصنعه لنا .

ولا أظن هناك من يتنكر وجود الشمس .

يا جان بول سارتر هل تنكر وجود الشمس

يا سيد ماركس هل تنكر وجود الشمس

يا مسيو جارودى هل تنكر وجود الشمس

أجيئوني أيها السادة ، فى صراحة وبدون التواء .

أجيئوني أيها الفلاسفة ، الذين تعاليم على الانسانية .

وأرهمتموها عسراً ، وبدنتم طاقاتها ، هل تنكرون وجود الشمس
ولا أريد شرحاً مفصلاً للمادية الجدلية يا سيد ماركس .

ولا أريد دفاعاً عنها يا مسيو جارودى .

ولا أريد أيضاً إعلاناً بطلانها يا سيد سارتر .

إنما أريد فقط أن تحدثوني عن شيء بسيط لا يحتاج إلى فلسفة ولا يحتاج
إلى جدل ، من هو الذى أوجد الشمس . ؟

ولقد يقول ماركس فى كتبه ، بكل أناة وبدون خجل أن أول ما تدهوا
إليه المادية هو إنكار وجود الله .

كما يقول السيد سارتر فى كتبه إننى شديد الميئاذيريقية فى رفضى لوجود
الله ، ويؤيد السيد جارودى رأيهما فى رفض وجود الله .

ولكن صبراً .

حسناً أيها السادة . . وإذا . . من هو الذى أوجد الشمس تلك البكتة

العظيمة من الغازات الملتببة .. والتي كانت بالفعل ملتببة منذ سنين لا نستطيعون
عدها .. ولا نستطيعون لها تخيلا ..

والتي مازالت ملتببة وستبقى كذلك إلى ما شاء الله أوجدها .

حسناً أيها السادة .. وإذا هل وجدت الشمس بدون موجد ..
وكيف هل يوجد الشيء من اللاشيء .. وبدون موجد وكيف
هل ينتج اللاشيء من ذاته شيئاً من تلقاء نفسه وكيف وهل اللاشيء يمكن
أن يعطي شيئاً أى شيء .

وكيف .. لقد كان الكون فراغاً .. فكيف جاءت من الفراغ مادة ..
وكيف جاء من اللاشيء شيء وشيء رائع وعظيم .

يامسيو سارتر .. هل يستطيع البشر أن ينتجوا من الفراغ مادة .. وبدون
وسيلة يامسيو جارودي هل رأيت في سالف حيائك مادة تنتج من اللاشيء
وبدون تدخل احد .. يامسيد ماركس : هل اللاشيء وهو الفراغ المطلق
يفتح الاشياء ويصنعها ، واناشد البشرية أن تصور معنى ما يريد فلاسفتنا العظام
أن يقولوه .. انهم يقولون منكراً من القول كان الكون فراغاً بلقماً فليس
هناك الكترون ولا بروتون ولا أكثر من ذلك ولا أقل .. وليس هناك
طاقات حرارية ولا ضوئية .. ولا غير ذلك من ضروب الطاقة .

ثم فجأة وبدون سابق انذار وجدت من الفراغ شمس ونجوم وكواكب
وآدم من بحر .

كيف حدث ذلك .. وبأى وسيلة حدث ؟؟ .

ولا أغن هناك من الناس عاقل أريب يصدق هذا القول .. أو يؤمن به ..

وأناشد البشرية جمعا أن تتصور متى أن أعلم علماء العالم وأكثرهم مهارة ، قد أدخل في حجرة مفرغة من الهواء تماما ، وخالية من كل مادة ، هل يستطيع هذا العالم أن يوجد من اللاشيء الذى حوله الكترون واحد ، وبدون استخدام أو استهلاك أى نوع من أنواع الطاقة .

وإذا كان السيد جارودى يعلن أن المادية الجدلية هى المادية التى تبدأ حركتها بإنكار أية معرفة صحيحة خارج نطاق المعرفة العلمية فاننى أسأل السيوجارودى هل من العلم فى شيء أن نعتقد أن المادة توجد من لا شيء .

وإذا : فهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن ينكر وجودها .

وهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن ينكر حقنا فى التساؤل من أوجدتها .

وهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن يعلن إنها وجدت من العدم بدون موجد لها .

وإذا : من هو الذى أوجد الشمس يا سيد جارودى ، وفى واقع الأمر لا نجد إلا إجابة واحدة مقبولة ومقبولة هى أن قوة عظي قد أوجدت الأرض والشمس والقمر هذه القوة العظمى تنصف بالعلم والحكمة ، إذ أن الموجودات التى نراها فى الوجود تسلك مسلكا معيناً ينهض على قواعد معينة وهذه القواعد تدل على حكمة من أوجدتها وحسن تدبيره ، كما أن هذه القوة العظمى قوة حية . . . إذ الجاد لا يوجد نفسه فضلا عن أنه لا يوجد شيئا عداه .

وفي هذا المجال فاني أتذكر وأذكر إني كنت في بدأ حياتي أمهل خطباتي
بكتابة :

« بسم الذي أوجدنا وما كنا لنوجد دون موجد » وكنت أعني بذلك
لأنه بما أنني قد وجدت نفسي على الأرض ووجدت شمساً تضيء لي ، وقرأ
يمكس ضوءها ، ونجوماً وكواكب وسماء وبحار فاني لا بد أن أعتقد
أن هناك قوة أوجدت كل ذلك ، وبما أن كل ذلك قائم على نظام دقيق
ومحكم فلا الشمس تصطدم بالقمر ، ولا الأرض تصطدم بالقمر ،
فاني لا بد أن أعتقد أن هذه القوة عظيمة حكيمة فضلاً عن أنها
حية . . إذ ان الميت كما سبق ان ذكرت لا يوجد نفسه . . فضلاً
عن أنه يوجد ما عداه وبما أن هذه القوة الحية العظيمة قد أوجدتني ومن
حولي من البشر ومن حولي من الجاد والأحياء ، فاني أقدرها لذلك وأهتف
باسمها ، كلما أشرق صبح أو غمس ليل ، هذه القوة العظيمة الحية التي
أوجدتنا هي الله الذي نمسده مخلصين له الدين ، وهذا المتألف الذي كنت
أزوره بسم الذي أوجدنا وما كنا لنوجد بدون موجد ، ما زلنا نهتف به
قائلين بسم الله الرحمن الرحيم . وسوياً رضى السيد جارودي أو سخط ،
فاننا لن نعمل المتألف بسم الذي خلقنا ، وبسم الذي يملك معهنا ومستقبنا
الحقيقي ، بسم الله الرحمن الرحيم .

يا سيد سارتر هل يستمع عليك أن تقوم هذا القول ، وهل
يفضلك يا سيد ماركس . أن تعبد الله الذي خلقنا والذي سهرجنا بعد
الموت أحياء .

وفي واقع الأمر . ما كنت بالذي يدخل البشرية في دوامة عنيفة من
الجلد العقيم أو من السفطة الكلامية ، يزيد بها شكوك البشرية وآلامها

مثلما فعل السيد سارتر ، أو مثلما فعل من قبله السيد ماركس والسيد جاردنى
وكل ما أقصد أن أبينه للبشرية جمعاء :

إن الانسان موجود على الأرض يبصر ويسمع ويتكلم ويعقل . ويحرص
على ما يفيد ، ويتقى ما يسبب له الضرر .

وأقول بعد ذلك إن الانسان يجب أن يحرص على مستقبله سعيد وآمن
وكذلك على حاضر سعيد ومطئن .

وأقول بعد ذلك أن الانسان يجب أن ينظر إلى مستقبله الحقيقى بعين
العناية والاهتمام .

وأقول وهو الأهم فى قولى أنه ما دام الانسان يرى نفسه مادة ويرى العالم
من حوله بمحفل بالمادة ويزخر بها ، وما دام الانسان يعلم يقيناً أنه لا بد لكل
موجود من موجد أوجده ، فلا بد أن يؤمن الانسان بوجود قوة عظمى أوجدت
هذا الكون وخلقته من العدم .

فاذا ما آمن الانسان بذلك فيجب أن يعلم أن هذه القوة العظمى هو الله
الذى نخلص العبادة ، ونشكره على ما وهبنا من النعم ونرجوه على القوام
أن ينعم علينا بمستقبل آمن سعيد .

وهناك من الناس من يقلون من الضلالة والاثم مدعيًا أن الطبيعة هى التى
أوجدت نفسها ، بطريقة تجهلها ولا يعيننا أن نعرفها ، وأقول لهؤلاء وأمثالهم ،
إن الطبيعة صنم كبير ، لا يعقل ولا يدرك ، ولا يحس ، وهى ليست قوة حية
ولكنها قوى ومطاقات ميتة ، فالرياح والأهبار والشمس المضيئة ، كلها تكون
قوى الطبيعة ومطاقاتها ولا يمكن للميت أن يوجد نفسه بنفسه فهذا ما يناق
مع العقل ، ولا يستقيم مع طبائع الامور .

وإذا ما ادعى هؤلاء أن الطبيعة التي يقصدونها قوة حية وعاقلة وحكيمة
وخرجوا بها عن المبادئ والأمر التي لها حيز محدد في حدود تصوره ،
فأنى أقول أن ما يسمونه م بالطبيعة نسميه نحن « الله » مع فارق بيننا وبينهم
هو أننا نعظم الله الذي أوجدنا ونعبده ، ونرجو رحمته ورضوانه وهم يتبنون
خلقهم وأهواؤهم ، دون ما سند من العلم أو من العقل ودون ما يرهان من
الواقع أو حتى من الخيال .

أذكر أيضاً أن إناساً عاشوا في القرن الماضي ، وكانوا يطلقون
على أنفسهم اسم الوضعيين ، رفضوا أن يقطعوا برأى في مسألة وجود
الله ، لأنهم اعتبروا كل ما يمكن التكهن به في هذا الموضوع غير قابل
للتحقق منه .

ويؤيد السيد سارتر مذهب الوضعيين قائلاً :

وهذا الموقف الذي وقفه الوضعيون أقفه أنا مع فارق واحد هو إنى
لا أعتبر نفسى أقل ميتة فزيقية في رفضى لوجود الله مما كان لـ ليبنتر في
تسليمه بوجوده .

ولا يسعى إزاء كل هذه الأضاليل والآكاذيب إلا أن أذكر بالرياضة
برهاناً لوجود الله ، ذا كرا في كل خطوة كيف يمكن التحقق من الصحة
المطلقة ، لهذا القول .

هناك في العالم مادة بأحجام كبيرة ومختلفة .

(ويمكن التحقق من صحة هذا القول بالبصر ، حيث نرى الشمس
مثلاً) .

ولكن لا توجد في الوجود مادة بدون موجد لها .
(ويمكن التحقق من صحة هذا القول بإغلاق غرفة مثلا ، لأى فترة زمنية
فإننا سنجد فيها كما تركناها)

إذاً لا بد أن يكون هناك خالق للكون الذى نعيش فيه ، والمواد التى
يحتويه هذا الكون .

- الجاد لا يمكن أن يوجد نفسه ، ولا أن يوجد شيئاً سواه .

(ويمكن التحقق من ذلك بترك حجرة مغلقة بداخلها كرسى مثلا ،
فترة من الزمن ، فإننا لا يمكن أن نجد كرسياً آخر بالحجرة أو
قباب مثلا) .

· هذا الخالق الذى أوجدنا لا بد وأن يكون حياً

· الكون معقد جداً ، ويسير على نظام دقيق

(تحقق منه المعلم الذى ندرسه)

· هذا الخالق حى وحكيم ويحسن التدبير

وهو المطلوب إتياء

وإذا جد فنحن لانأثمهم بمستقبلنا الحقيقى ، وهنا شئ واجب على
كل البشر ، وعلى كل إنسان يعتز بنفسه ويألف أن يرد لها موارد التهلكة
في غير ما غاية نبيلة

نحن لانأ نفعل ذلك ، فإننا لا بد أن نلقي نظرة عقلانية إلى المسألة

الذى نمشي فيها

وإذا كان السيد سارتر يشك في أن الكون لا يحتمل في حد ذاته أن
يضمن النظر العقلاني المبنى قائنا نقول له:

يا سيد سارتر الانسان وجد نفسه على هذه الحياة ومنذ المصور السالفة
ووجد حوله الطبيعة بكل ما فيها من عوامل حية وعوامل ميتة وجد الوحوش
الضارية تتربص به ريب المنون ووجد الثعابين الخبيثة تحاول كلبا وانها
الفرصة أن تدس السم الزعاف في دمه فكان :منفصاً على أن يحاول الدفاع عن
نفسه بالوسائل التي يستطيع اتباعها وكما كان حديثا في تبرير الفكر والدهوة
إليه ، كان الانسان في اندفاعه الفكري الطبيعي والذي لا خيار له فيه ،
ملزماً ومطالباً باستكشاف موقعه في هذه الحياة ، ومن ثم يسعى نحو تأمين
مستقبله الحقيقي منها وذلك بالايمان بتلك القوة التي أوجدته وأحكمت بنيانه ،
والتي آمن بها بالفكر وليس بالجهالة .



المبحث الرابع

النظام - دليل عقلي قاطع على وجود الله

نستطيع جميعاً أن نرى الشيء المنتظم وأن نميزه سريعاً .. فإذا كان الشيء مرتبطاً في سلوكه بقواعد ثابتة لا يحدوها ... أما أن يسلك الشيء سلوكاً اعتباطياً وبغير ارتباط بقواعد ثابتة فإن الشيء يكون قوضاً في سلوكه . أو غير منتظم السلوك . فالضوء مثلاً منتظم في سلوكه إذ أنه يسير بسرعة ثابتة في الوسط المتجانس ... وفي خط مستقيم ... أما الحركة البروانية التي تتحركها جزيئات البروتوبلازم في الخلايا النباتية الحية فإنها حركة اعتباطية إذ أنها لا ترتبط بقواعد سلوكية ثابتة .

ولقد نجد في واقع حياتنا كثير من الأمثلة التي تفرق بين الشيء المنتظم أو الذي يسير على نظام ثابت ... وبين الشيء الفوضوي والذي يسير اعتباطياً في سلوكه وبدون أي نظام . غير أن الشيء الملم الذي أقصده أن الشيء المبت لا يمكن أن ينظم نفسه بنفسه ... إذ أنه لا يملك الإرادة التي يسيطر بها على نفسه ... أو يخضعها لقواعد وأسس تنظيمية معينة .

وحيثما أقول أن الجاد لا يملك الإرادة التي يسيطر بها على نفسه ... فأنى أشير إلى أن الجاد معدوم الإرادة كلية ولا يملك على الإطلاق أي نوع من أنواع الإرادة . ويستطيع السيد جارودي أن يتحقق من قولي ... كما يستطيع الوجوديون ومعهم السيد سارتر أن يتأكدوا منه بسهولة .

أحضِر يا سيدي جارودي عشر قطع من الخشب وضعها في أي وضع تشاء

وبأية كيفية تريد . . . وأكون كاذباً لو حاولت بعض هذه القطع أو كلها أن
تغير من هذا الوضع الذى فرضته أنت بإرادتك عليها .

طافاً بما وجدنا فى الواقع الذى نعيش فيه جهاداً يلتزم بأساليب ونظم
معينة . . . ولا يجيد عنها فاتهاك بد أن نعمل ذلك بأن قوة حية قد ألزمت بهذه
النظم . : أخضعته لهذه الأساليب بعينها .

وأول ما أضرب به المثل . . . هذه القطعة الصغيرة المجيبة من الحديد
المغناطس إنها ترفض باصرار أن تجمد عن اتجاه ثابت . . . كما أنها تجنب يراة
الحديد إليها . . . وتأتى أن تجنب النحاس . . . أى أنها تربط فى سلوكها بقواعد
ثابتة لا تجمد عنها .

وإذا كنا نعلم تماماً أن المغناطيس جماد . . . وأن الجماد معدوم الارادة
بالنسبة لنفسه ولمن عداه . . . فلا بد أن تقرر أن قوة حية من خارجه قد ألزمت
بهذا السلوك وأجبرته على اتباعه .

ثم لماذا :

تجذبنا الأرض إليها يا مسيو سهرتر ؟؟ هل فكرت فى هذا السؤال وأنت
تعلن على الملأ أنك شديد الميئافيزيقية فى رفضك لوجود الله .

وكما يعلم بقينا أنت الأرض جماد . . . وأن الجماد معدوم الارادة بالنسبة
لنفسه وبالنسبة لمن عداه .

وبالرغم من ذلك فإن الأرض تجذبنا إليها بقوة تطلق عليها قوة الجاذبية
الأرضية وكنا يقرر بثقة وإيمان لا بد من أن قوة حية عظيمة قد ألزمت
كوكب الأرض بأن يجذبنا إليه وذلك أيضاً لأن الحياة بدون الجاذبية
الأرض حياء صعبة ولا يمكن أن تطلق . . . ولقد طش عشرة من العلماء تجربة

علمية بعيدا عن الجاذبية الأرضية .. لفترة قصيرة قرروا بعدها أنها حياة صعبة ولا تطاق ..

ومعالم يستقيم مع طبائع الأمور أن يكون كوكب الأرض قد أخذته الرحمة بنا فقرر أن يجذبنا إليه .. إذ أن كوكب الأرض جاد .. لا يفكر ولا يعقل وليست له إرادة .. لكن الذى يستقيم مع طبائع الأمور أن يكون هناك إله قوى رحيم قد ألزم هذا الكوكب يجذبنا إليه رحمة بنا ولحكمة أرادها مولانا جل وعلا

لماذا تدور الأرض حول نفسها بإسид سائر ..
ولماذا تجمل دورانها توقيتا دقيقا .. مرة كل أربع وعشرين ساعة ..
وكيف يتم ذلك يامسيو جارودى .. هل تلبس الأرض ساعة حول معصمها ..
أو أنها تضع منبها على منضدة بجوار السرير الذى تنام عليه فى غرفة نومها ..
وكلنا يعلم يقينا أن الأرض لا تملك عقلا .. ولا معصما .. كما أنها لا تنام على سرير .. وليس لها عين تبصر بها .. كما أنه ليس لها أية إرادة بالنسبة لنفسها أو بالنسبة لمن عداها .. وكلنا يقرر بثقة وإيمان .. أنه لا بد من وجود قوة حية عظيمة قد ألزمت كوكب الأرض بالدوران حول نفسه .. والدوران مرة كل أربع وعشرين ساعة .. لا تنقص ولا تزيد ، على مر الزمن السرمدي

وكلنا يقرر بثقة مطلقة أن الله جل جلالته هو الذى أوجد الأرض من العدم ثم أسرها باتباع نظام ثابت ودقيق .. أسرها بأن يجذبنا إليها فيجذبنا دون أن تكون لها إرادة .. وأسرها أن تدور حول نفسها .. فدارت .. ودارت ، ، وما زالت تدور وتدور .. ولن تزال إلى أن يشاء الله رب العالمين

لماذا تجذب الشمس إليها ، يأسهو جاريدى •
هل هناك من يتعرض لتلك الكتلة الملتببة المتوهجة من الغازات والتي
نسميها الشمس ارادة بالنسبة لنفسها •

وكلنا يقرر في ثقة وإيمان أن الشمس جماد ومن ثم فهي لا تملك أية ارادة
بالنسبة لنفسها أو بالنسبة لمن هداها ، ولكن قوة حية عظيمة هي قوة الله
الرحمن الرحيم قد ألزمت هذه الشمس بأن تجذب الارض اليها ، لحكمة
سامية قد يعلمها الناس وقد يجهلون:

هل أنت الان شديد الميتافيزيقية في رفضك لوجود الله يامسيو سارتر ..
واود ان تعلم البشرية جماعا انه لا يعنى في شيء ان يقتنع المسيو سارتر
بصدق حديثي .. او يتلوا في ميتافيزيقته الضالة .. عابثا بمستقبله الحقيقي
مبددا لطاقته وقدراته فيما لا يحقق نفعا ولا يرد ضررا .. لكن الذى
أعنيه ويهمنى انقاذ ما يمكن انقاذه من ضحايا سفاح الارواح العالمى الشرير
جان بول سارتر الذى لا تدرى به البشر .

إن رجالات العلم من العصر الحديث قد اتبعوا طريقة في تحصيل العلم تنفق
مع كرامة العلم ومع كرامة العقل البشرى والقدات الانسانية . ذلك انهم يصفون
ما يشاهدون من ظاهرات الكون بأمانة ودقة ثم يضعون آراءهم وتفسيراتهم
التي يدهونها ويبرهنون على صدقها بالتجارب العملية . وفضل ذلك تقدم
العلم قفزا في جميع مجالاته .. وتقدست الانسانية بفضل العلم والمعرفة حتى
اضحت في اوج القوة وفي اوج الطموح .

لكن العلم ورجالاته يقفون امام الواقع كما يقف التلميذ امام استاذ ..
فهم يستطلعون هذا الواقع ايا كان .. ثم يحولون تقريره بوسائل ومسببات

عقلانية مقبولة ، ثم يحاول لون التماس ما يبرهن على صدق أساليبهم وعلاهم من الواقع بالتجربة العلمية أو الاستدلال العلمي .

وعلى سبيل المثال ، حين يرى رجالات العلم إن الشمس تشرق على بقعة من الأرض ، بينما تظلم عن النصف الآخر منها ، ثم ما يلبث الحال أن ينعكس ، فيضيء المظلم ، ويظلم المضيء ، فان رجالات العلم يقررون أن الأرض مستديرة في شكل يقارب شكل الكرة ، كما يقدررون أن الأرض تدور حول نفسها ، مرة كل أربعة وعشرون ساعة ، وبالطبع هم صادقون في قولهم .

لوفرضنا جدلاً أن الشمس هي التي تدور حول الأرض ، لما تردد رجال العلم أن يقولوا : إنه نظراً لأن الأرض أصغر من الشمس فانها أسرع منها في الحركة ، ومن ثم فان الشمس تدور حول الأرض .

كما أننا لوفرضنا أن تعمل على أبعاد الأرض عنها ، لقال رجال العلم موافقين . أن الشمس تبذل قوة من أجل أبعاد الأرض عنها ، لكن الغلاف الهوائي يعمل على الحفاظ على موضعها .

ولو فرضنا أن الأرض تحصل على الطاقة من ذاتها دون تدخل الشمس ، ولم تكن هناك أى علاقة بينها وبين الشمس ، لوافق العلماء دلي ذلك بسرعة قائلين إن الغلاف الجوى المحيط بالأرض غنى جداً بالطاقات اللازمة للأرض ومن ثم فانها تكفى ذاتياً .

وهكذا ، فان رجالات العلم يفتنون أمام الواقع كما يقف التلميذ أمام أستاذه ، فهم يبذلون كل ما لديهم من جهد في استطلاع أسرار الكون ثم يقبلوها كما هي ، ويحاولون تبريرها أيا كانت وهذا في حسد ذاته شيء حسن ولكن .

غير أنى أجد لزاما علينا أن نتمنى إلى بواطن الأمور . . . وأن لا نقف
ههنا مجرد التبرير . . . فبدلك نستطيع أن نكون أساندة لواقع . . . وليس
مجرد تلاميذ له .

وعلى سبيل المثال .

نحن نرى الشمس تجذب الأرض . . . وبالطبع هذا واقع ونحن ملزمين
بقبوله . . . ولكن لنا أن نسأل . . . لماذا تجذب الشمس أرضنا . . . وبالطبع
لا يكفي أبداً أن نهر . . . وأن نقول لأنها كانت جزءاً منها أو لأن الجزء يجذب
الكل إليه . . . أو لأن الشمس تملك قوة جذب كبيرة . . . لا يكفي هذا أبداً
وعلى أن نبحث وأن نكون أكثر تعمقا .

علينا مثلاً أن نقول . . . ومن هو الذى منح الشمس قوة الجذب الكبيرة
التي تجذب بها الأرض . . . أو من هو الذى ألزم الكل بأن يجذب الجزء في
حالة الشمس والأرض .

وعند ذلك سنعلم بوضوح أن الجماد لا يمكن أن يتصرف من تلقاء نفسه
وأنه لا بد من قوة حكيمة حية آمرة . . . تصرف الأمور بناءً على دقيق . . .
لا يتغير . . . هي قوة الله الحكيم العليم .

ههنا ذلك نكون قد فهمنا حقيقة الواقع وفهمنا حقيقة أنفسنا معه . . . وفهمنا
أن حالته التي نراها هي حالة معينة أرادها الخالق جل شأنه . . . ولو أراد غيرها
لكان ما أراد ولوجدنا نحن من الأسباب والعلل ما نفسر به ما نراه .

حسنًا . . . العقل البشري شيء باطل يجب أن ترد حركته إلى حركة
المادة . . . وكذلك العلم وهو الابن الشرى للعقل البشري هو أيضا باطل وهو
لا يعتبر إلا عن وجهه النظر البورجوازية . . . لكان هؤلاء القوم يريدون

للإشرية أن تصمم آذانها . . . وتغمض عيونها وتمنع عقولهم ثم تسلم قيادها لهم . . . ليقودوها إلى مستقبل بأئس وتميس ،
ولنلق نظرة هادئة إلى أنفسنا . . . كل منا يرى نفسه جيداً ويعرف عنها الكثير . . . ويكون من لائق لو أنكر السيد سارتر وجود نفسه . . . حتى يشبع في نفسه عقدة الإنكار أو الرغبة فيه وأول ما يستثير اهتمامنا في الإنسان . . . عقلة البشرية العجيب ذلك أنه كتلة من الخلايا الحية . . . ولكنها تستطيع أن تفكر وأن تدرك وأن تمى . . . وتستطيع كذلك أن تحتفظ بالمعلومات والمعاني بطريقة الحفظ التي نعرفها . . . وكذلك فإن هذا العقل يعى بطريقة ما زالت مبهولة كل التجارب والخبرات التي تمر بالإنسان طول حياته . . . بل إن تكرار الخبرة المؤلمة يسبب ما يعرفه علماء النفس بالعقدة .

وهذا ما . . . يسجله رجال العلم عن العقل البشري وعن قدراته التي لا يحصيها العد .

ثم بعد ذلك تأتي مرحلة التعليل التي يحاول رجال العلم من خلالها أن يعللوا الظواهر التي يرونها ماثلة أمامهم .

وفي حقيقة الأمر إنه بالرغم من التقدم العلمي وبرغم كل الجهود المخلصة التي بذلها ويبدلها رجال العلم . . . فما زالت الحقائق العلمية التي يعرفها العلماء عن العقل البشري الغازا يصعب حلها . . . وبـل يصعب التكهـن بحلولها . . . وما زال الخلاف حاداً بين العلماء حتى حول الحلول التي يتكهن كل فريق منهم بها .

وعندما تأتي للرحلة الهامة وهي مرحلة التعمق إلى بواطن الأمور وسير أغوارها . . . فالتنبؤ بأماننا في الواقع أشياء غريبة وإلغة القرباية .

كتلة من الخلايا الحية تزف حوالى رطل ، تدير الجسم البشرى كله وبكل كفاءة ، فيها مرا كز السمع والأبصار والحركة ، الخ . وتخرج منها خطوط اتصال بجميع العضلات الارادية فى جسم الانسان وتصدر منها الأوامر إليها جميعها ، فتنفذ هذه العضلات هذه الأوامر على الفور ، وعلى طريقة : طم الأوامر ولو كانت خطأ ، كما أن بها مرا كز اتصال تلتقط كافة الرسائل العصبية التى تصدر من الخارج ، فالحين فافقة للعقل على العالم يرى من خلالها ما يدور حوله من أحداث ، والأذن وسيلة العقل إلى التسمع والمحاط به وإلى تبادل المفاهيم ، وفضلا عن هذا فان هذه الكتلة تسجل فى داخلها كل خبرة يستطيع الانسان الحصول عليها ، ومن الممكن أن تحتوى بداخلها كل خبرات العالم وكل معارفه .

هذا فضلا عن كثير من الانفعالات التى تزيدنا حيرة وتعجبا .

فحينما يغضب الانسان أو يستبد به القلق ، أو يرتعد خوفاً ، فان الجسم بكل الطاقات التى يملكها يستجيب لهذا الانفعال ويتصرف طبقا لما يأمر به العقل ، وحينما يغضب الانسان يعنى كل قواه لمواجهة ما يغضبه ، وفى اللحظة التى يأمر فيها العقل مرا كز القوى بالمجوم أو الإطاع ، فان هذه المرا كز لا تتوانى عن العمل ، بأقصى طاقة تستطيع بذلها .

ويأتى بعد ذلك الافكار التى يفتجها الانسان ، فى كل فن وفى كل علم ، فهذا عالم يكتشف ، وهذا فنان يبتكر ، وذاك شاعر يحيل الكلام إلى أداة تعبير جميلة ، وهذا فيلسوف يبحث عن الحكمة وينقب عنها ، ودلم جرا وتخرج من كل هذا بسؤال ، هل كتلة اللحم أو كتلة الخلايا المسكونة للنخ ، هل هذه الكتلة فى حد ذاتها كجموعة من الخلايا الحية تريد وهل لها فى حد ذاتها إرادة ذاتية ؟؟ .

وأود أن أقول : أنه ليس هناك على الإطلاق أى فارق بين خلايا المخ وخلايا اليد من حيث أن كلا منهما خلايا حية ، أما إذا قلنا أن خلايا المخ من نوع خاص هو الخلايا العصبية الحية فأنى أقول أنها تماثل خلايا النخاع الشوكى ، بدون أدنى فارق غير أن خلايا اليد لا تريد ، والانسان يحرك يده كما يوحى إليه عقله ، أى بإرادة العقل وليس بإرادة اليد ، ولو أن العصب الموصل لأوامر المخ قطع لصار شأن اليد وهى خلايا حية كشأن قطعة من الخشب وهى جاد ، أى بدون أى إرادة لا بالنسبة لنفسها أو بالنسبة لمن عداها ، وأيضاً خلايا النخاع الشوكى لا تريد ، فالمخ فى حد ذاته لا يريد .

لكن الواقع الذى نجده ملموساً أن المخ يريد ويملك الإرادة بالنسبة للانسان كوحدة وبالنسبة للوسط المحيط فى الحدود التى يملكها الانسان ، ويسيطر عليها .

ومن ثم فالتنا نستطيع القول بأن هناك قوة عليا هى التى تملك وحدها الإرادة فى هذا الكون وهى التى تمنح الإرادة للعقل بالنسبة لانسائه وبالنسبة للوسط المحيط ، وهى أيضاً تسيطر مباشرة على الجاد وتجعله يلتزم بقواعد وأساليب معينة .

وهذا فى الواقع التفسير الوحيد للعقل البشرى العظيم ، الذى حمل على عاتقه كشف أسرار هذا الكون ، كما حمل على طاقته تذليل كل عقباته والوصول إلى حاضر سعيد مستقر ومستقبل آمن وسعيد .

هل رأيت يا سيد سارتر هذه الدودة الصغيرة السوداء التى تبلغ فى حجمها حجم رأس الدبوس ، والتى تنظاهر بالموت ، إذا ما وضعت أمامك

قريباً منها . . ثم ما تلبث أن تتحرك خفية . . فإذا ما لاحقتها
بأصبعك فأنها تكرر النظام بالوت ، حتى إذا ما تيقنت أن هذه الحيلة لن
تجدي ، طارت في الهواء بعيداً .

وهلم تعلم يا سيد سارتر أن في هذا الحجم الذي يماثل حجم رأس الدبوس
جهاز تنفسي ، وجهاز هضمي ، وجهاز دوري وأعضاء الحركة على الأرض ،
وأعضاء الرؤية ، وأعضاء الطيران ، وبعد ذلك فضلاً عنه جهاز عصبي
مركزي « مخ » يقوم بوظائف التفكير في إعداد الخطط للدفاع عن حياة
الهدوء أو للتخفي عن أعدائها .

وإذا كنا نعلم ذلك ، فما نعلم تعليلاً حقيقياً له إلا أن الله ذو العظمة
والجلال منح هذه الهدوء الصغيرة في الحجم إرادة على ذاتها وعلى الوسط
الحيظ بها ، بقدر إرادة لها سبحانه وتعالى :

وذلك التعليل لا يعد من العلم فحسب بل يعد من روح العلم ، إذ أن
العلم كما أوضحت يقف من الواقع كما يقف التلميذ من أستاذه ، ولكن روح
العلم يقف من طبيعته موقف الأستاذ لتلميذه ، ولا شك أنه لا يمكن أن
يكون هناك أدنى تعارض بين العلم وروحه كما يتصور أو يصور أعداء العلم
وأعداء الإنسانية جمعاء .

هل رأيت يا سيد سارتر القلب الإنساني ، وهل سمعت دقاته ذلك
القلب الإنساني الذي يدق أول دقاته عقب خروج الإنسان إلى الحياة ،
وتظل دقاته ، مدوية طالما كانت هناك حياة ، وحين يتوقف هذا القلب وتضمت
دقاته ، فإن الحياة تتوقف وتفارق الإنسان ويصبح الإنسان شاة كشأن
الجدوع وقطعة من الخشب .

وإذا ما كان الانسان يعلم ذلك تماماً . . . وإذا ما كان الانسان يعلم أيضاً أن القلب ينبض لا إرادياً . . . أى بقوة خارجة عن إرادة الانسان فإنه لا بد أن يفكر . . . بأى إرادة ينبض قلبه . . . وبأى إرادة يتوقف هذا القلب عن النبض .

وإذا كنا نعلم يقيناً أن القلب ينبض بانتظام حوالى ٧٥ دقة كل دقيقة فالتا لا بد أن ننسب الحكمة إلى القوة العظمى التى منحت كل القلوب الانسانية إرادة ذاتية هى النبض .

ويقول الشاعر الصوفي مخاطباً مولاه جل وعلا :

أحبك قلبى حين أدرك نبضه بأبك سر النبض سر السرائر

وكذلك يخبرنا العلم أن فى جسم الانسان كثير من المعضلات التى لا تتحرك تبعاً لأرادتنا ولكنها لا تتحرك بمزاجها الخاص وبارادتها الخاصة . . . ولكننا نعلم أنه لا يمكن أن تكون الإرادة إلا لكائن الحى المستقل . . . وبالطبع القلب ليس كائن حى مستقل . . . كذلك فإن العضلات اللاإرادية ليست كائنات حية مستقلة . . . ونحن نعلم أيضاً أن القلب وكذلك العضلات اللاإرادية تتحرك طبقاً لقواعد وأسس ثابتة أى تتحرك بانتظام . . . فلا بد أن نعلم أن هناك قوة عظمى قد منحت هذه الأعضاء إرادة ذاتية تعمل بها مستقلة عن إرادة الانسان وفى سبيله . . . وفى سبيل حفظ حياته . . . وتأدية الوظائف الحيوية التى ترتبط بها .

هل رأيت أو سمعت عن الميتوكوندريا يا سيد سارتر . . . أنها كما يقول العلم جسيمات ^(١) صغيرة جداً تبلغ جسم الواحدة منها $\frac{1}{1000000}$ من المليمتر المكعب .

(١) نقلاً عن محاضرة الدكتور أحمد فرج راضى محاضر دلم فسيولوجيا الجهاز
بكافة علوم أسبوط .

ورغم ذلك فإن هذه الجسيمة التي تباع من الضالة أقصاها . . حينما وضعت تحت ميكرومكوب الكروني . . ثبت أنها على شكل صندوق ذو ثلاثة جدران . . وبداخله أرقف . . فوقها أنزيمات لازمة لحياة الخلايا النباتية الحية . .

ما قولك يا مسيو سارتر . . فيمن أوجد هذه الجسيمات . . هل أقل من أن نصفه بأنه بالغ الحكمة والقوة . . يقدر فيحسن التقدير . . ويدبر فيحسن التدبير . . وهناك أيضاً شيئاً نذكره هو أن جسم الكائن الحي . . لا يريد ذاته ولا يستطيع الإرادة على نفسه . . فالقيل مثلاً لا يستطيع جسمه أن يتحول من ذاته إلى جسم غزال أو نمر . . والإنسان مثلاً لا يستطيع جسمه من ذاته أن يتحول إلى جسم عصفور . . كذلك لا يستطيع جسم البقرة الخضراء أن يتحول إلى لون أحمر . . مثلاً . . لكننا وبالرغم من ذلك نجد أن هناك كائنات حية تستخدم التغير في لون جلدها كوسيلة للدفاع عن نفسها . . فهذه الحرباء حينما تكون في أوراق الشجر تكون خضراء . . وحينما تكون في الرمال . . تكون صفراء . . فهل أدرك جسم الحرباء أنه بهذه الوسيلة يكون آمناً من أهدائه . . أو متخفياً عنهم . . وهل الحرباء أكثر مهارة من كل ما عداها من الكائنات الحية حتى تستطيع أن تغير من لون جلدها تغييراً ذاتياً . . بدون وسيلة . . وبالطبع نستطيع جميعاً أن نعرف أن قدرة الله العظيم ورحمته هي التي منحت جلد الحرباء إرادة ذاتية ليغير لونه وفقاً لوسط المحيط .

وحينما نتأمل شئون الكون وطوائم الأمور يتأكد لدينا بما لا يدع للشك مجال أن الذي أوجد هذا الكون يقدر فيحسن التقدير . . ويدبر فيحسن التدبير . . فهذا النبات الضارب في الأرض بمنوره . . والباق في الفهم

يفرعه ، مصنع كبير ، يقوم على أسس دقيقة وموازنة ، يحفظ الحياة لنفسه ، أعنى للمصنع ، ويحفظ الحياة لمن عداه من الكائنات مصنع كبير ، ينتزع من الهواء الجوي ثاني أكسيد الكربون الذى يخرج من فوهات المصانع فى المدن والذى يهدد البشرية بالدمار ، ثم يصنع منه ومن المياه وطاقة ضوء الشمس ، غذاء الانسان والحيوان ، لولاه ما عاش إنسان ولا حيوان .

ذلك يدل على حسن تدبير وحسن تدبير وهذا لا يتأتى عفواً أو اعتباطاً ، لكنه يدل على قوة متدرة ومدبرة قد أوجبت الكون ومن فيه هي قوة الله الرحيم .

النبات يابت من البذور ، والبذور كائنات حية فى وضع سكون ، والانسان هو الذى قد ينقها للتربة ، ثم تلتط فيه وينمو الكائن الحى النباتى ، لتنمو شجره كبقرة باسقة تحافظ على حياة الانسان وتمده بالغذاء .

ولقد يأخذك السجب حينما تشاهد ينبتين متماثلتين فى الحجم ناتجتى من كل منها شجرة مختلفة من الأخرى تمام الاختلاف ، فكأن كلا منهما قد جففت أصل أبهما كايما عن كايما ، وكأن كلا منهما قد حملت بوصية والديها ، أو أجدادها ، ولقد نجد البذور من يزود نفسه بأهداب تعمل على الإخسجة تطير بها فى الهواء حتى تنشر نوحها فى ربوع العالم كله ذلك من تقدير حكيم عليم ، ذلك من تقدير ربها الذى يقدر فيحسن التدبير ويدبر فيسبحن التدبير .

وأود أن أكتب للضعفين وللشبهو سائرته البرهان الثانى لوجود الله ، بنفسى الطريقة الرياضية التى ذكرت بها البرهان الأول .

لميت لا يملك الإرادة التي يسيطر بها على نفسه .

و نستطيع التحقق من ذلك بأن نحضر قطع الطوب أو من الخشب ونضعها
كما نريد فاتها لن نحاول تغيير مواضعها) .
المعاد لا يمكن أن ينظم نفسه .

• • •

هناك كثير من المعادلات فنضع لنظم وأسس ثابتة لا تتجدد عنها .
(نستطيع التأكد من ذلك بملاحظتنا للمغناطيسية والجاذبية
الارضية ، الخ) .

∴ فلا بد أن تكون هناك قوة عليا حية قد نظمت هذه المعادلات
وأخضعتها للأسس ونظم ثابتة) .
وهو المطلوب إثباته .

• • •

نحن بالطبع لم نرتكب خطأ أو جرماً ، وكل ما فعلناه هو أننا قد نظرنا
إلى مستقبلنا الحقيقي نظره اهتمام ، حتى تنجوا كما نجي الحاكم العاقل الذي
أوردته الرواية القديمة ، وحتى لا تؤخذ على غره قهرك ونضيج ، ونحزق
نعمسنا ألم النحسر وصراره الندم غير ما جدوى أو فزع .

ونحن بالطبع لم نخطئ حين قررنا أن ننظر إلى العالم نظره عقلانية
علمية ، إذ أن النظرة العقلانية العلمية هي كل ملاحنا وهي أيضاً سبيلنا
إلى تكريس طاقنا وما نملك من جهد وإمكانات لصالح الحاضر الذي
نحياه ، ولصالح المستقبل العربي على امتداد الزمان الذي لا ينم ، في
سيرته و زمانه .

فالأيام تسير وتتابع ، ولا بديل من يوم ماضٍ إلا يوم آتٍ ، وإلى أن
تزول الأيام وتزول دلالاتها الزمنية ، يبقى الزمان بدلالة أخرى ، يعلمها الله
الذي أوجد الزمان دلالاته ، التي قبلناها نحن كأمر واقع . . .

وإنني لاتصور وأقرر أن العقل كل العقل والحسكة والفتنة والذكاء
والدهاء وما إلى ذلك من دلالات الاستحسان ، ليجب أن تسبخ فقط ، وقط
على ذلك الذي يعطى جهداً وفكراً اتأمن نفسه في ذلك الزمان الذي ما زلنا
نجهل دلالاته الزمنية وإذا هو فعل ذلك فأنى أتيقن بشيء إنه سيهدى إلى الحق
والخير وإلى صراط مستقيم .



المبحث الخامس

الإلهام - كدليل عقلي قاطع على وجود الله

يتقرب الإلهام في معناه من الارشاد ، فالرشد هو من يرشدك إلى سلوك معين ، ثم يتركك الحرية في اتباعه ، أما الملهم فهو من يوحى إليك بطريقة غير منظورة سلوكاً معيناً ثم لا يترك الحرية في اتباعه أو مخالفته ، وبحيث يكون الاجبار ذاتياً .

وطى سبيل المثال حينما يحضر إلى أحد بالاصغاء ثم ينصحن قائلاً : « لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد » ، فإن صديق هذا يعتبر مرشداً الى وأستطيع أن أنفذ إرشاده ، كما أستطيع أن أصرف النظر عن قوله ، أما حينما أجد نفسي ويرغمى وبدون تدخل أحد وبدافع ذاتي متدفقا إلى الجنس الآخر ، ومنفذا لسلوك معين هو وجوب العمل على المحافظة على الجنس البشرى بالتناسل وإنتاج أجيال جديدة أو ما يعرف بالمحافظة على النوع فإن ذلك له تفسير آخر يختلف عن الارشاد .

ولقد يتأمل الانسان كثيراً في هذه القضية الفكرية شيء يفند رغم أنف منفذه وبدون أى ضغط خارجي وبدافع ذاتي عنيف .

وحينما تحدثت عن الارادة ذكرت أن الجاد ليست لديه أية إرادة لا على نفسه ولا بالنسبة لمن عساه ، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن ينظم نفسه بنفسه لمو ينضج نفسه بنفسه لتفواهد وأسس سلوكية معينة ، فإذا ما كان هذا الجاد يتبع نظاماً معيناً لا يبدوه فإن هذا يدل دلالة قاطعة على أن قوة حية

خارجية قد نظمت هذا الجماد وأخضعته لتلك القواعد والأسس السلوكية التي تراها .

هذه بالنسبة للجماد أو الشيء الميت ، أما السكان الحيوانية الراقية فإن له إرادة يستطيع أن يفرضها على نفسه وأن يتصرف في حرية بما يتلائم مع بيئته وظروف حياته ، وحينما ينفذ السكان الحيوانية شيئاً رغم أنه أعنى بدون إرادته فلا بد أن تكون هناك إرادة أقوى من إرادته قد أجبرته على تنفيذ ما لا يريد ، ومثل ذلك الإنسان الذي يرتكب خطأ في حق المجتمع الذي يعيش فيه بالسرقة أو القتل ، ثم يرى المجتمع أن من اللائق عقابه بالسجن مع الأشغال الشاقة . فإن هذا الإنسان ويرغم إرادته يقضي فترة في السجن يتخللها العمل الشاق الذي ينفذه رغم أنه لأن إرادة تفوق إرادته قد أجبرته على هذا العمل .

أما إذا كان السكان الحيوانية المرید ينفذ شيئاً رغم أنه وبدون ما إجبار من إرادة خارجية منظورة أقوى من إرادته فالتأني لا بد أن نقول أن التأني إلى ذلك ذاتي ، بمعنى أن هناك إرادة ذاتية عند هذا الإنسان تقف ضد الإرادة الأصلية له ، وتعمل على إجباره على تنفيذ هذا الشيء ، ونحن نطلق على الإرادة التي تجبر الإنسان على سلوك معين ضد إرادته الأصلية بالإلهام أو الغريزة وهذا الإلهام أو تلك الغريزة تدل على لا يدع مجالاً للشك على وجود الله . وتنفي ونعني بكل شدة أقوال السيد ميارتر ، وأذكر للتدليل :

تعبان السمك الذي يعيش في شواطئنا المصرية ويسافر كل عام إلى المحيط (الاطلنطي) وفي منطقة خاصة منه حيث يقف مؤخر عام لتعاين السمك التي تعيش في العالم أجمع ثم تسافر هناك وتقف راجعة إلى أوطانها الأصلية ثم تعود سفارها كل إلى وطنه الأصلي دون أن تفضل الطريق ، أليس يحق علينا أن تبين أن الله

- هل تعرف الثمايين السمك في العالم أجمع أنه يجب عليها أن تلتقي في مكان معين كل عام ، وبالطبع لا ، الثمايين السمك لا تعرف لغة المؤامرات التي ينظمها الانسان كما أنها لا تمد الخطط والمؤامرات لبعضها أو لغيرها من الأجناس .

ولو كانت تعرف أنه من الواجب أن تتحرك إلى هذا المكان لفرط في الواجب كثيرون معذرون بطول الرحلة أو بقلة الزاد والراحلة ، ولكنها تتحرك بلا إرادة أو بما ما نسميه بالفرزة ومن ثم فإن كل ثمايين سمك في العالم يجد نفسه في فترة معينة من الزمن متحركاً إلى بقعة معينة ، وصناره التي ترى العالم لأول مرة تعود أدراجها في نفس طريقه دون أن فضل الطريق .

من أين جاءت الفرزة وليس هناك من تحليل صادق إلا أن الله سبحانه وتعالى قد ألهم هذه الثمايين أن تفعل ما فعلته لضرورة يعلمها جل وعلا وهي ضرورة حفظ النوع وهي لا تعلمها ولا تدري عنها شيئاً بل تفعلها بدون إرادة وبدون وهي .

ولعل هناك من يقول ألم يمكن من الممكن أن تبقى الاممك حيث هي وتتكاثر حيث هي ، وتحافظ على نوعها في أوطانها الأصلية ، وأود أن أقول : إن الله الكريم أوجد الوجود وأوجدنا نحن البشر على قمة الوجود ففكر ونذكر ونعني ، ففكر في الوجود ونذكر أنه لا بد له من موجد ونسئ أن هذا الموجد هو الله .

وبرغم ذلك وجدنا رجلاً مثل المسيو جاردى يعلن أنه لا يؤمن بالله لأنه ينكر أية معرفة إلا إذا كانت داخل نطاق المعرفة العلمية ، وهذا بالطبع قول ساذج يتكبره العلم وهو أيضاً منكبر يكر أن نرد عليه بالقول : ومن أدراك يا مسيو جاردى أن وجود الله ليس في داخل نطاق المعرفة العلمية .

وبعد ذلك أخضع الجمادات لأسس وقواعد ثابتة ، فالضوء مثلا يخضع
لأسس وقواعد ثابتة والارض تخضع لأسس وقواعد ثابتة رغم أن كل منها
جماد ، حتى نتيقن من أن هناك قوة حية عليها قد نظمت هذا الجماد ، وجعلته
يسهر على أسس ونظم معينة لا يحميد عنها .

ومع أيضاً أوجد الترائز والالهامات في الاحياء من خلقه كي يوعز إلى
الانسان في وضوح إنه بما أن هناك إرادة في نفسه ضد إرادته الأصلية وتفوقها
من حيث القوة وتدفعه رغم أفه إلى القيام بأشياء أو تنفيذ أفعال معينة ، إذا
فلا بد أن تكون هناك قوة عليها هي التي فرضت على الانسان من ذاته إرادة
ضد إرادته ونستطيع الآن أن نبحت في هدوء هل العلم يتعارض مع وجود الله
وهل الايمان بوجود الله ليس في داخل نطاق المعرفة العلمية كما يقول السيد
جارودي .

وإذ كنا نحن نقول إن العلم هو النتيجة المباشرة للنظرة العقلانية للأمور
أولاً الواقع بمعنى إتنا ننظر إلى الواقع ونفكر فيه تفكيراً سليماً ثم نكتشف
أسراره وخفاياه ونحاول الاستفادة من اكتشافاتنا هذه في حياتنا العملية .

ونحن حينما ننظر إلى العالم نظرة عقلانية سنقرر إنه يحفل بالمادة ويزدهم
بها كما أننا أيضاً حين ننظر إلى الواقع نظرة عقلانية سنقرر أن المادة لا تقى
ولا تخلق من العدم والطاقة لا تقى ولا تخلق من العدم وإنه لا شيء يوجد
تلقائياً من اللا شيء وحينئذ إذ نعلم يقيناً إنه لا بد من وجود قوة حية عليها قد
أوجبت هذا الكون ومن فيه .

ولقد يعلن العلم إن ذلك النبات الذي يأكل الحشرات أو ثمر « شطاره »
من النبات المادى إذ أن النبات الذى يأكل الحشرات أكثر حساسية وافتحالا
من النبات المادى .

ولكن النبات كما نعلم يخلو عادة من وجود جهاز عصبي مركزي وبذلك فإن النبات لا يفكر وليس له ذلك الاحساس بالآلم الذي يشعر به الحيوان .

فحين يقوم الانسان بذبح طائر مستأنس أو حيوان بقصد الحصول على عضلاته واستخدامها كبروتين حيواني فأنتا نجد أن كمية ضخمة من طاقات الآلم ستهدر في عملية الذبح أو القتل ، أما حينما تقنلع شجرة من مسكانها فأنتا لن تتألم ولن نرى أيا من طاقات الم أو عذاب .

وإذا كنا نعلم ذلك فمن هو الذي جعل النبات الذي لا يفكر يقوم بتنفيذ أخبث الحيل وأكثرها دقة لأسر الحشرات والتغذى بها . . فهو يفرز رحيقاً حلواً يفرى الحشرات بتتبع مصدره ... فإذا ما انطلقت الحشرات إلى داخل تجويف معين قفل عليها خط الرجعة وأفرزت عليها عصارات هاضمة تقوم بهضم وتحليل الحشرات تمهيداً للتغذية منها ويحق علينا أن نتساءل أو نسأل أنفسنا هل يعلم هذا النبات ، أن الحشرات تحب الرحيق الحلو ... وهل درست هذه النباتات علم نفس الحشرات حتى تعلم ذلك والاجابة بالطبع لا أنه لا يمكن أن تكون هذه النباتات قد فكرت إذ أنها لا تملك جهاز عصبي مركزي تفكر به ولو اعتقدنا أن النباتات تفكر لكان من الصعب علينا أن نتصور كيف أستغل الانسان هذه النباتات منذ خلقت ولصلحه دون أن تحاول إحداها أن تقاوم أو تدافع عن نفسها أو تفكر ذلك . . وإذا فلا بد من أن قوة الرحمن الرحيم قد منحت هذا النبات بالالهام قوة الحيلة التي يستطيع بها أن يخادع بها الحشرات ويتغذى بمادة جسمها وبدون مبالاة بطاقات الآلم التي ستهدر من هذه الحشرات في موتها ، وبالنسبة أجندى مدفوعاً للمقارنة بين هذا السلوك الفرزى للنباتات وبين سلوك ألزم به نفسه شاعرنا العربي أبي العلاء المعري فيما من شك أنه لموقف نبيل حقاً أن يلزم إنسان نفسه بالايهدر في حياته أية

طاقات ألم أو بمعنى أوسع ألا يتعدى بالقتل على من ذونه من الحيوانات ...
ولقد أئزم شاعرنا العربي نفسه بهذا السلوك النبيل فأبى العلاء المعري أنبل في
واقع الأمر من هذا النبات . . ولكن أبا العلاء المعري قد مات وقد تألم عند
موته وكذلك كل الطيور وكل الحيوانات التي كانت حية في عصره قد ماتت
وقد أهدرت عند موتها طاقات الألم . . . وكذلك كل حي لا بد أن يموت
ولا بد أن يتألم ؛

أو كما يقولون ؛

من لم يست بالسيوف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

إذا فهذه الحشرات التي تغتذ بهذا النباتات . . كانت لا محال ستموت .
أليس من الالقي أن يكون في موتها ما يسبب لغيرها الحياة أو يزيد فرصته
فيها .. وبهذا يكون النبات أكثر حكمة من أبي العلاء المعري .

وشيء آخر أخطأ أبا العلاء في تقديره وهو أنه اعتبر حياته على الأرض
نقمة وليس نعمة فهو يقول في هذا .

هذا جناء على أبي وما جفيت على أحد

وبالطبع هذا شيء خاطيء فالله الكريم قد منحنا فرصة الحياة كنعمة منه
علينا إذا أنه أتاح لنا فرصة التأخير في الكون الذي نعيش فيه كما منحنا الفرصة
لنسمو بأنفسنا إلى مراتب عليا دونها مراتب الملائكة الأبرار الذين لا يصعبون
الله ما أمرهم ويسبحون بحمده بكرة وعشيا .

وهذا لا ينبغي بالطبع أن حياتنا مسئولية كبرى ملقاة على عواتقنا . . كما
لا ينبغي أن ذلك الذي يستهين بحياته ويهمل مستقبله فيها سيتحمل المسئولية
كما ينبغي أن تكون . . .

ثم كان ما ادماه الحاقدون على شاعرنا العزيز وردحا من الزمان وهو أنه
أنكر وجود الله وكذلك البعث والحساب وأن من أقواله في هذا الشأن :
أموت ثم بعث ثم حشر . . . فذلك خرافة يا أم الزمان

وهم يدعون أن المعرى كان يتعمل في ذلك بأنه ليست هنالك بينة واضحة
تثبت له وجود الله وأن النار قد اختلفوا فيها بينهم في ذلك الشأن غير أن ذلك
كله كما يتضح لنا الآن محض افتراءات كما أتت هناك ألف دليل ودليل على
وجود الله كما أن العلم والمعرفة وكل ما يأخذه الانسان بعد النظر العقلاني ويسجله
تدلل بصدق وبصرامة على وجود الله .

ولقد أرى الله بعين الفكر واضحاً كأنقى ما يكون الوضوح ولقد استخدم
الطرق العلمية والوسائل العقلانية في هذه الرؤية فلا تزيدها إلا روعة وبهاءً ،
ولقد يلجأ الكثيرون إلى الجدل الموضوعي أخذاً بالسأمل معتمداً عليه وذلك
ما نعرفه بروح العلم أو الفلسفة ويقعها على هذه الرؤية فلا يزيدنها ذلك
إلا ثباتاً وإشراقاً . . . وما أعرف في عالمنا شيئاً يزيد في ظهوره للعقول عن
ظهور الله ، أن الله لا ينهى في ظهوره بل أن كل حقيقة تحمل الشك في ذاتها مهما
كانت إلا حقيقة وجود الله أتق أمحبها على الدوام الحقيقة المطلقة ولقد قرأت
في ذلك أبيات شعرية . أكتبها لجرد الإعجاب بها .

يقلى وإيمانى بفكرى وخطرى	بروحى ووجدانى أراك مغتماً
فأنت الذى تسمو إليك مشامرى	لنشكر حق أنعماً وتكرماً
وأنت الذى أرنو إليك بناظرى	وروحى بنور من جلالك تخشماً
وأنت إلهى ما بذلك ربيبة	وأنت إله الكل والخلق أجملاً
خلفت فسواحى يا مهيمن	فانبرى بحبك قلبى شاكراً ومغظلاً

ومن هذا الذي نتمى بصيرته حتى لا يرى يد الله الرحيمة وهي تمتد بالرحمة إلى العالم أجمع لنعم رحمة الله كل شيء .

فلتظفروا يا بني البشر إلى حنان الأم الهادق نحو وليدها . . . ذلك الحنان الذي لولاه لكانت الحياة على الأرض أصعب مما تتصور ومما نطبق أو تتحمل هذه الابدوة المتوحشة التي تهدر كل يوم كميات ضخمة من طاقات الألم دون ما شعور بالذنب أو تأنيب من الضمير ، كيف تتحول أمام أبنائها إلى مخلوق لطيف حنون . . . تدفع عنهم الأذى وتضحي في سبيلهم بكل ما تستطيع من جهد وحتى الحياة إلى آخر لحظة فيها .

وهذا الثعبان الخبيث المتوحش الذي يفس السسم في جسم الكائن فتتدفق الآلام في جسمه وتقضى عليه بالهلاك هذا الثعبان بالرغم من ذلك تحتضن أتناه البيض زماناً . . . وترعى صغارها وتحنوا عليهم وتبر بهم كالحسن ما يكون الأب وكالحسن ما تكون الرعاية .

هكذا نجد أمام أعيننا وبوضوح هذه الشحنات الرائعة من الحب والحنان الذي تحمله كل أنثى نحو وخيدها بالفريزة أو بالالهام من الله الرحيم ومهما كانت طبيعة حياتها فالأممهاك في البحر تجتهد لبيضها مكاناً هادئاً وقد تحضنهم في قعر زماناً وهذه التماسيح المتوحشة تجتهد في دفن بيضها في الرمل تحت الشجر حتى تدفئ أشعتها هذا البيض وتعمل على نفسه من الحماقة أن تتصور أن السمك تدرك بالمقل أن في هذا الحنان محافظة على جنسها إذا أن هذه الأممهاك يأكل كبيرها صغيرها ولكن الاصح أن تقول إن الفريزة وحدها هي التي تدفع الأممهاك إلى هذا السلوك وهذه الفريزة قد ألزمت بها هذه الأممهاك إرادة الله الرحيم أرادها جل وعلا إذ أن هذه الفريزة تمثل إرادة خفية تتبع من ذات السمكة بعيداً عن جهازها المعوي المركزي وتدفعها إلى سلوك

مفيد لا تعلم هي نفسها مبالغ فائدته أو أهميته . ومثل ذلك الاقبال اللا ارادى بين الجنسين ومن جميع الانواع والخصائص والذى يعد أساساً ل عمران الكون فالمصفور المفرد والوحش المفترس والانسان الذى يحاول التحكم فى فرائزه ، كل تلك الانواع رغم تفاوتها واختلاف طباعها تقبل على التماسل والتزاوج بإرادة غامرة تلعب من ذواتهم وبدون ماضط خارجى عليهم ولا يستطيع إفسان مهما كان عناده ولجاجته ان ينكر وجود قوة حية عليا قد غرست هذه الفريضة فى نفوس الخلق حفاظاً على عمران الكون وعلى أنواع أحيائه .

ولقد نجد على الحياة وفى الحياة وفى الواقع الذى نحياه صوراً إلهامية ممتعة نقف أمامها متأملين بل ولربما كان الانسان فى حاجة إلى عظات وعبر من هذه الصور الرائعة .

ولنتظروا يا معشر البشر إلى مملكة النحل إن فيها لآية أى آية فجميع النحل فى جميع العالم أجمع تعيش فى جماعات متعاونة ولكل جماعة منها ملكة وجيش يدافع عن مسكنها وشغالات أو عمال يقومون بتربية الصغار وجمع الغذاء ولتفكروا يا معشر البشر من أين يتأتى للنحل أن تنظم نفسها على هذا النظام الذى تسرون عليه فى العالم كله وإذا كن العقل ينقذ ذلك فما من شك فى أن هذا السلوك سلوك غريزى من وحى القدرة الالهية الرحمة . هل تعتبرون يا أولى الالباب .

ولنتظروا يا معشر البشر إلى مملكة النمل تلك الآلة البينة وذلك النموذج الرائع للجد والاجتهاد والنشاط واللباس فللمملكة النمل حكومة وجيش ومجلس دافع أعلى ومصانع وعمال كل يعمل فى مجال اختصاصه بدون كل وبدون تواكل ، وبكل إخلاص . . . هل يعلم المسيو سارتر أن النملة إذا ما حصلت على حبة فانها تقسمها إلى شطرين حتى لا تنبت وإذا كان نصفها ينبت

شطرتها إلى أربعة أقسام مائة . . هل يعلم المسبو سارتر أن بعض النمل يستغل
خشرات أخرى تماماً كما يستغل الفلاح ماشيته إذ أن بعض النمل تربى بعض
أنواع من المن تطعمها وتسقيها وتحصل على إفرازات حلوة من غدة خاصة
يخسها ؟ وهل يعلم السيد سارتر أن بعض النمل يمارس مهنة الزراعة بشكل
يقارب ما يفعله الانسان ويسير النمل في صفوف منتظمة ويخوض حروباً ضارية
دفاعاً عن نفسه أو هجوماً واعتداء .

وأود أن يسأله الانسان نفسه هل الجهاز العصبي المركزي للنملة هو الذي
يملئ عليها كل هذه الافعال ونستطيع في ثمين أن نقول بل إن القدرة الالهية
الرحيمة تعطينا الامثال والادلة حتى نهتدى وحتى لا نضل . . .

ونظرة أخيرة إلى أنفسنا فهذا هو جسم الانسان يعمل ويؤدي وظائفه
بانسجام كامل وبغائية وإحكام. حينما يشتد البرد فان الغدة الفوق كلوية تفرز
الإنزيم الاذريناليد الذي يحول بعض الدهون المخزنة إلى طاقة حرارية وبذلك
تعود إلى الجسم حالته الطبيعية التي يشدها ولقد يقال أن الغدة النخامية أو
الغدة الرئيسية أو المتحركة أو المسيطرة التي تقع أسفل المخ هي التي تسيطر على
نشاط الجسم الحيوي وهي التي تنظم علاقات الغدد ببعضها حتى يؤدي الجسم
وظائفه بدون خلل أو تناقض وبكل انسجام . . . ولكن هذه الغدة الرئيسية
التي تقع أسفل المخ من يرشدها إلى سلوك منتظم دقيق . . أعني من يلمها هذا
السلوك المنتظم الدقيق ومن يجرها عليها بل ومن يعطيها سلطة الرئاسة على
نشاطات الجسم الحيوية كلها وبدون أدنى شك لا بد من وجود الله الرحيم التي
تلمها أن تفعل ما من شأنه الحفاظ على حياتنا وبدون أن تفكر وبرغم إرادتنا .

هذا النبات الشوكي الذي ينبت في الصحراء والذي لا يملك جهاز عصبي
مركزي ولا غدة نخامية ومع ذلك نجده يؤدي وظائفه بانسجام كامل ونجده

ينظر إلى الأمور من حله فكأنه يعقل ويسمع ويرى حينما يعلم أن الحيوانات
قد تتغذى به فانه يجعل لنفسه أشواكا تعوقها ويدافع بها عن نفسه كما يجعل
أوراقه مرة وغير مستساغة لتغذية الحيوانات وحينما يعلم أن الجو من حوله جاف
وأن الماء فيه نادر فانه يحاول ما أمكنه أن يحافظ على الثروة المائية في داخله
ولا يأنف أن يحول أوراقه كلها أشواكا حتى تقل نسبة بخار الماء من داخله متخذاً
بذلك قراراً حاسماً ومفهماً . . . هذا النبات لم يفكر في ذلك لأنه لا يملك وفق
ما يقول به العلماء أى جهاز عصبي لكن الذى دبر وقدر هو الله الذى يقدر
ويحسن التقدير ويحسن التدبير .

وإن نظرة صادقة إلى الكون وشئونه تكفى في حد ذاتها أن تبرهن لنا
على أن الكون كله قائم على أساس الالهامات والفرائض فينبون الفريضة الجنسية
التي تدفع الجائسين معاً إلى التزاوج الذى يؤدي إلى حفظ النوع من الاقراض .
بدون هذه الفريضة كان المصير الاوحد للعالم الحى هو الاقراض كما أنه بدون
فريضة عطف الالهات على أبنائهم كان هلاك الأبناء محتماً وكان الهمار للعالم
الحى حتماً محترماً وهكذا نعلم يقيناً أن وجودنا على الأرض لا يأتى من تفكيرنا
فحسب أو أن كفاحنا على هذه الحياة وانتصارنا على عوامل الفناء ليس بفضل
نظرتنا العقلانية للعالم واستفادتنا من هذه النظرة فحسب بل هو أيضاً بتدبير
حكيم عليم وهبنا من الفرائض والالهامات ما يساعدنا على مجابهة الحياة والانتصار
على عوامل الموت فيها أو عوامل الاندثار بها ما نحمده وعلا عليه ونشكره
دوماً ودواماً .

وذلك في واقع الأمر ما يدفعنا عقلانياً إلى الإيمان بالله حل وهلاكنا يدفعنا
أخلاقياً إلى الإيمان به سبحانه وتعالى . كظهور من مظاهر النيل الاخلاقي في
زهدهم الحياة .

المبحث السادس

في رحاب الايمان

الايمان الفطرى بالله القادر للعليم

الايمان بالفطرة لا يعنى إطلاقا الايمان بالوراثه . . . فالايمن بالوراثه قد يعنى التقليد الأهمى ، تماما كما يقلد البنفاء أصوات من حوله من الكائنات دون أن يى منها شيئا . . لكن الايمان بالفطرة يختلف عن هذا كثيرا .

وما أعنيه بالايمن بالفطرة هو إيمان ذلك الانسان الذى لا يقحم نفسه فى فلسفة أو منطق ولا يشغل عقله فى تفكير أو جدل عقيم . . . لكنه يسهر طبقا لما توحى إليه طبائع الأمور وطبقا لما يوحى إليه عقله ووجدانه . . فى هذه الحياة .

فالانسان يرد إلى العالم ضعيفا لا خول له ولا قوة . . . فقواه الجسدية لا تكفى لاستمراره فى الحياة إلا إذا أمده المجتمع بالعون . . . كما أن قواه العقلية تكون فى المعتاد ضعيفة :

لكنه يجد من معونة المجتمع المتمثل فى عطف أبويه ما يكفيه وما يعينه على خوض بحور الحياة بثبات وقوة . . هذا الانسان بعد أن ينضج عقليا . . لا تستغرب إطلاقا أن يسأل نفسه عن مصدر هذا الحنان الدافق الذى كان فى صدر أبويه نحوه وهو صغير . . والذى منحه القوة على الصمود أمام تحديات الحياة رغم أنه لم يكن يملك من القوة ما يكفيه لمعالجة تيارات الملاك .

فاذا ما سأل الانسان نفسه هل والهام قد فسكروا وأمعنا التفكير قبل أن

يقرراً ضرورة مده بالمطف والرعاية . . كقرار عقلاني في مقصود . . لذاته
وبالطبع سيعلم أن والديه فلا ذلك بإحباء خفي خارج عن إرادتهما . . تماماً مثلما
تمطف الأنثى في الطيور والوحوش على أبنائها . . وهو إذا ما قرر ذلك فإنه
يؤمن تلقائياً بوجود قوة عليا قد غرست هذا الإحباء الخفي بالمطف والحب
والرعاية في فس أبويه أو في نفوس الأحياء جميعاً . . ويكون مستعداً
للإيمان بالله سبحانه وتعالى والنفسك بدينه على تلك الاستاؤلات قد تم في
العقل الظاهر . . ولكن بطريقة موضوعية وصليمة وقد تم فيما يسميه علماء
النفس بالعقل الباطن أسمى الإحساس الخفي . . ويؤدي لا شعورياً إلى إيمان
الإنسان وثقته بالله . . ومع مرور الأيام نجد متفناً لأحكام دين الله بكل
ثقة وبكل الطمئنان ونجد يدافع عن الدين بحياته ويبدل في سبيل نصرته النفس
والمال . . وكل ما هو غال وعزيز .

وقد يتأمل الإنسان في حاله وكيف يتبدل ضعفه قوة وخوفه أمناً وكيف
تكونت لديه نظرة عقلانية إلى أمور حياته . . ثم قد يسأل الإنسان نفسه عن
سر ذلك . . وكيف صار إلى ما صار عليه وقد يعرف الإنسان شيئاً عن طبيعة
جسمه ودقه صنعه وكيف أن أعضائه تعمل بانتظام وأحكام وبدون أن تبلى أو
تصدأ . . . وكيف أن جسمه يعمل بترباط . . دون أن يفكر في ذلك أو يقحم
نفسه في حمل جسمه أو يرشده إلى ما يجب أن يكون . . ثم قد يسأل نفسه عن
من أحكم له بليانه ومن أوجد في جسمه هذا الترابط وهذه القوة .

وبالطبع أنه لا بد أن قوة عليا قد أوجبت هذا الترابط وهذا الانسجام .
ويكون مستعداً لمد هذه القوة وشكرها على ذلك . . كل ذلك أيضاً قد يتم
بصورة ظاهرة وقد يتم كاحساس خفي يشكون في العقل الباطن ولا يمكنه يؤدي
في الحالين إلى إيمان قوي بالله الواحد الأحد العظيم .

واقدر تتككون لدى الانسان فكرة عن نفسه . . . في أى مجال من مجالاتها فهو حين يتأمل شكله الظاهري يجد شكلا متناسقا في أحسن تقويم حيث يجد قامة مستقيمة . . . وعينان جميلتان بمنحان وجهه كثيرا من الجمال والرونق . . . فوقهما ببشرة . . . شعر خفيف وبينهما أنف يتنفس منه الهواء . . . ويشم به الروائح . . . وتحتة فم يزينة أسنان بيضاء وهكذا يجد من شكله الأنسانى المتناسق ما يحمله على القطع بأنه لا بد من إله حكيم فنان هو الذى صورده وصور بنى جلده على شكله . . . وعلى هذه الصورة الجميلة .

وهو حين يتأمل الجهاز الدموى الموجود فى داخله يشعر أيضا بالقدره والاعجاز تجاه من صنع هذا الجهاز الدموى . . . إذ أنه يشاهد قلبا دقات نابضا يدفع الدم فى أوعية وشرابين وفى دورة كاملة متناسقة . . . يساعدها ويتم عليها قلوب لمقاومة تضخ ماء الحياة إلى الأوعية مرة أخرى . . . وهو يعلم أن كل ملليمتر مكعب من دمه يحتوى ملايين الكرات الدموية الحمراء والى تحمل الأكسجين بأمانة . . . من الوسط الخارجى أو من الرئتين إلى جميع الخلايا والأنسجة الحية فى الجسم البشرى ولقد يزداد عجب حين يعلم أن هذا الدم يعمر أيضا ملايين من الكرات الدموية البيضاء التى تطارد الأجسام الغريبة عن جسمه وتقضى عليها قضاء مبرما . . . كما أنها تقاوم الأمراض المختلفة مقاربة مستميتة . . . وتحاول ما وسعها الجهد أن تقضى على أطوارها حينما يقابل ذلك بعقل نقي . . . خال من جرائم الملاحظة أو من الوم والخرافة لا بد وأن يثبت لديه أن الذى أوجد كل هذا إله قادر عليم يقدر فيحسن التقدير . . . ويدبر فيحسن التدبير . . . هو حين يتأمل كيف كان ضعيفا عند وروده إلى الحياة الدنيا ثم صار فيها قويا ثم يرتد فى الكبر ضعيفا كما كان . . . لا بد وأن يستفيد من ذلك العبرة السنية والموهبة الجميلة .

ولقد يجد لزوما عاياه أن يعتقد أن الطعام الذي يتناوله هو السبب المباشر لنموه وقوته وذلك ما يجعله يطيل التأمل والتفكير ، لولا شعوريا . . . كيف استطاع جسمه أن يحول المواد الميتة إلى مواد حية ويضيفها إلى تركيبه الحي ويزداد بها طولا وعرضا وقوة ،

ولقد يتأمل في جهازه الهضمي فتأخذه الروعة أى مأخذ . . . فله لسان يتنوق به الطعام وأسنان مختلفة الأشكال والانواع تطحن هذا الطعام وتمزقه . . . ومعدة بهضم فيها الطعام ويتحول إلى عناصره الأولية . . . وأمعاء تتم هذا العمل على تخير وأحسن الوجوه ولقد يعجب الانسان حينما يعلم أن في تجويف أمعائه مخلوقات حية ودقيقة تنتج فيتامينات لا غنى للانسان عنها ولقد يتساءل الانسان من هذا الذى أوجد هذه المخلوقات الدقيقة . . . لصالح الانسان وكضرورة من ضروريات حياته وحينئذ يتبين تماما أن قوة عليا قد أحكت صنع الجهاز وجعلت جدران الخلات دقيقة للغاية حتى يمكن أن تسمح للغذاء المهضوم بالانتقال من فراغ الجهاز الهضمي إلى داخل الجسم أو إلى مادة الخلايا الحية ومن ثم يكون مسقدا للإيمان بالله . . . ويزيد إيمانه قوة . . . كلما أمعن عقله . . . ونفى جوهره .

ولقد يتأمل في جهازه العصبي . . . سواء من حيث الظواهر السطحية التى يراها طافية على سطح الواقع . . . أو من حيث الحقائق العلمية التى يراها أولئك الذين يتمتقون فى الواقع إلى أعماق البحث العلمى .

فلقد يجد غريبا أن يستسلم فى الال لنوم لا يسمع أثناءه صوتا . . . ولا يرى خلاله شيئا . . . ولقد يمر بمر به مخلوق أو كائن حى . . . ولاند يؤذيه ذلك المخلوق ويسبب له الضرر دون أن يحس هو شيئا أو يلقبه إلى شيء . . . ولقد يجد غريبا أن يرى فى نومه أحلاما قد تكون مسعدة سارة وقد تكون مزعجة .

ملية بانفصات ولقد تألمه أحلامه بفعل أو سلوك معين قد يكون فيه له
نفع كبير . . .

ولقد يجد له عقلا مفكراً . . . ونظاره عقلانية إلى الأمور قل أن
ينجيب . . . فيمن أن الذي جعل مضفة من اللحم تفكر لا يمكن أن يكون
إلا إله قوى قادر عليم . . . وقد يكون ذلك الفكر كله ظاهراً . . . وقد
يكون متخفياً . . . ولكنه في الحالين فكر . . . وليس انقياد أعمى أو تقليد
مسخ . . . إذ أن ذات الانسان ومستقبله الحقيقي أهم من أن يتركه لتقليد
المسوخ أو الانقياد الأعمى .

ولقد يبهره الجمال . . . جمال الكون وجمال مخلوقات فيه . . . جمال هذه
الزهرة المتفتحة بفوح منها عطرا وشذا . . . جمال هذه الاشعة الذهبية لشمس
الاصيل وهي تنعكس على الماء . . . جمال الخضرة الباسحة في الربيع . . . والماء
ياحبها ، ويجوس خلالها جمال هذه السماء الصافية . . . وقد انعكس صفائها
على وجه الماء . . . أو جمال الوجوه الانسانية التي قد تبهره جمالا . . . بل قد
تفتنه وتسحر ليه وتجعل الال له صديق فكر والنجوم له رفاق رحلة طويلة
لا تنتهى . . . وحينما تمصف بنفسه نسمة الجبل فانه يصبح وقد ذق إحساسه
معظما ذلك الذي أوجد الجمال . . . وموحدا وشاكرا وطابدا .

ولقد يرهبه العنف . . . هنف هذا الكون الفسيح الجليل . . . فلقد يهتج
البحر فيتحول من كائن جميل إلى كائن عنيف كأقصى ما يكون العنف . . .
ولقد يبدو هذا البحر قاسياً رغم جماله . . . قاتلاً رغم ما يبدو من رفته . . .
ولقد يتطلع أخوة له من نفي جلده ويذيقهم كأس المنية الموبين أحشائه . . .

ولقد يتصف الربعد ويبرقي البرق . . . حتى لتنزل من السحب ناراً

تُحرق الشجر الأخضر حتى ليصير حطاما وتقتل كل من تلمسه أو تقترب منه من أخوته ومن بنى جلده . . ولقد يعصيه الزعر حينما يرى السماء وقد تلبنت بالنيوم حتى صارت كبحر هائج . . ويرى البرق يبرق بين ثديها . . ويسمع قصف الرعود . . ولقد يفكر وهو في كل هذا فيمن يمكن أن يلجأ إليه . . وأن يستغيث به . . فلا يجد الا من أوجده على هذه الحياة . . حينئذ يؤمن أن الذي خلقه على هذه الحياة هو الله الواحد الأحد . . هو القوة العليا في الكون والسيطر على هذا الكون . .

ولقد يجد آباءه وأجداده من قبله قد ماتوا وواراهم تحت التراب بيديه أو بأيدي بنى جلده من الناس . . ولقد يجد في كل يوم أخاه يموت ويشوى تحت التراب . . ومن هنا يميز عليه أن ينهب هباء ويمز عليه أن تكون كل قيمته على الأرض ما يستطيع احرازه من لقمة لن يكون ختامها إلا صرارة الموت وأله .

ولقد يجد الموت يتربص به في كل خطوة . . تحمله الميكروبات والجراثيم ويحمله سلاح البنى والعدوان . . ويحمله الحظ النافر ولا يمكن أن يجدهما يؤمن به نفسه من الموت إلا أن يعتقد أنه سيرد إلى العالم مرة أخرى . . ليفوز باجر ما قدمت يداه . . ولقد يجد أحبائه قد فار قوة وماتوا . . وحياتئذ يكون عزاءه على هذه الدار أنه وهم سيردون مرة أخرى .

وهو يؤمن في كلا الحالين أنه لا بد له من خالق لأن الشيء لا يمكن أن يخلق من لا شيء . . وأن هذا الخالق العظيم هو الذي سيرجعه إلى الحياة . . مهما ظلال الزمن بعد موته . . فذلك وعدم رسل الله لا يخلق الميعاد . . وكاذ كرت آتفاقد يكون كل هذا تفكير يوهى فتقول عنه أنه تفكير ظاهر .

وقد يتكون بالذوعى فنقول عنه أنه تفكير باطن ، لكن كل منهما تفكير وأيس
اقتياد أعنى أو تقايد محسوس ، أما أولئك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر
فإنهم يحتمرون فطرتهم ، أعنى يحتمرون تفكيرهم الباطن أو الظاهر .

وخلاصة القول أن الإيمان بالله واليوم الآخر تفرقه النفس الانسانية والعقل
والضمير الانسانى إقراراً تاماً وأيضاً إقراراً تلقائياً بصرف النظر عن مدى
ذكاء العقل عند ذلك الانسان أو مدى ثقافته ، فالإيمان بالله سبحانه وتعالى
هو مظهر من مظاهر الانسانية نفسها أو هو مقوم من مقوماتها ، وهو أيضاً
عامل من عوامل تثقيف الانسان وتعليمه ثم هو أيضاً أساس لهضته في حياته
كلها ، وأساس لاحتساسه بالسعادة والامل وبالأمن والسلام .

اللانهايات في الفكر والواقع

في هذا العالم الذى نعيش فيه ، وفي عصرنا هذا ، ظهرت لغة الارقام
واحتلت مركزاً هاماً في الفكر الانسانى ، كوسيلة دقيقة ولاقباس والتقدير
في شتى مجالات الحياة ، ولقد استخدمت الارقام في المصور السالفة ، بيد
أن استخدامها كان بسيطاً ، وفي حدود ما تقتضيه ضرورات الحياة ،
كعدد الايام التى مضت على حادث هام ، أو كمدا يملكه فرد من النخيل
أو من الماشية :

أما الآن ، وبعد أن تقدمت وسائل القياس وتحسنت أساليبها ، فقد
استخدمت الارقام في مجالات ضخمة ، وفي مهام دقيقة ، وعلى سبيل
المثال فقط ، استخدمت الارقام في تحديد المسافة بين الشمس والأرض ،
وأيضاً بين نواة الذرة ، واحد الميكروفلت ، وكما نعلم ، المسافة بين

نواة القدر وأى الكثرزون تابع لما صغيرة جدا تقدر بوحدة الانجستروم وهي واحد على مليون من المايكرومى بالطبع مسافة محدودة أو كمية محدودة .
أما المسافة بين الأرض والشمس فهي مسافة كبيرة جداً تبلغ ٩٦ مليون ميل ... ورغم ذلك فهي مسافة محدودة أو كمية محدودة . . . وهناك نجوم تبعد على الأرض بمسافة مائة سنة ضوئية . . . ومع ذلك فهذه المسافة تعتبر مسافة محدودة .

وقد وقر في أذهان الناس أن كل شيء له أول وآخر . . . وله بداية ونهاية مهما بلغ بعده ومهما بلغت غايته . . . ولقد يحق علينا أن نسأل ونحن في عصر الآرقام . . . هل هناك شيء ليس أول ولا آخر . . . أو وليس له بداية ونهاية .

وقبل أن نبحث هذا السؤال . . . أود أن تتأمل قليلا المعنى الكبير الذى ينطوى عليه . فهذا النجم الذى يبعد عنا مليون مليون ميل نعتبر المسافة بيننا وبينه كمية محدودة . . . وهذا النجم الذى يصلنا ضوءه بعد مائتى عام نعتبر المسافة بيننا وبينه كمية محدودة . . . وإذا فنعن نفى بالكمية اللانهائية . . . هذه الكمية التى لا تنتهى أبداً ولا يمكن قطعياً أن نعبّر عنها بالآرقام . . . مهما تخيلنا . . . ولقد نجد واقعياً أن مسافة بليون بليون ميل . . . مسافة لا شك كبيرة وهي غاية في السكبر لكنها في الدف اللانهائى كمية محدودة وأي كمية محدودة تعتبر صفراً بالنسبة للكمية اللانهائية . . . فإذا تساوىنا هل إذا تخيلنا أن الكرة الأرضية مجوفة مثل كرة القدم . . . ثم ملئناها تماماً ببطاقات صغيرة . . . مكتوب على كل بطاقة بليون بليون بليون ميل . . . هل يقترب مجموع هذه الاعداد من المد اللانهائى الذى نقصده . . . ، والاجابة على ذلك تكون أننا لو كررنا هذه العملية مليون مرة أو حتى ألف بليون مرة فالتنا

كمية لانهاية فأنتى أذكر أن الوجود الذى نعيش فيه كمثل يعتبر مقدارا لانهايا من حيث الحجم إذا لا يمكن أن يكون لهذا الوجود بداية كما لا يمكن ايدا أن يكون له نهاية فنحن نعيش على بقعة صغيرة من هذا الوجود هي الأرض التى ينفقها غلاف غازى ثم على بعد منها نجم فشمس وكواكب المجموعة الشمسية ثم على بعد آخر قد نجد نجما مثل الشمس تدور حوله مجموعته من الكواكب مثلما تدور الأرض حول الشمس وكما بعدنا فى الفضاء الجوى كلما شاهدنا نجوما أو كواكب لا يستطيع الانسان عددا ولقد نسأل أنفسنا ماهو الجدار الذى يحده فراغ الكون بحيث يمكننا أن نعتبره نهاية هذا الكون الذى نعيش فيه وبالطبع لا يمكن أن يكون جدار أى جدار ياتهى عنده الكون أو نحكم به على الكون بأنه كمية محدودة إذ أن كل ما يمكن أن نتخيله جدار هو فى الحقيقة من مقومات هذا الكون فالمواد الصلبة بكل أنواعها من مكونات الكون والسوائل بكل أنواعها والغازات وكذلك اللاشئ أو الفراغ من مكونات هذا الوجود الذى نعيش فيه وإذا ما غادر الانسان مجال الجاذبية وأخذ يسبح فى الفضاء الكونى فإنه لن يصل إلى نهاية ولا يمكن بحال من الأحوال أن يصل إلى نهاية . فهو قد ينزل خفيفا على كوكب الزهرة ثم يغادرها إلى زحل أو عطارد وقد يغادر مجموعتها الشمسية إلى أى نجم آخر ولكنه لن يصل إلى نهاية . وإذا ما تخيلنا أن هذا الرجل يتدفع بأضعاف سرعة الضوء فى اتجاه واحد فإنه لا يمكن أيضا أن يصل إلى نهاية . ومهما كانت فرصته من مسيرة الزمن قد تسمى مليون سنة أو حتى بليون سنة ولكنه أيضا لن يصل إلى نهاية . وعمر الكون لا نهائيا من السنين ولكنه أيضا لن أن يصل إلى مانهاية ولا يمكن أن يصل إلى من الطرف أن تصور رجلا يمشى فى الفضاء فى اتجاه واحد

بذيه الوصول الى آخره . وأنه يمدو بسرعة تساوى مليون مرة فيبر سرعة الضوء . . . ولعل من الطريف أيضا أن نذكر أن هذا الرجل يعد ومن قبل أن توجد الارض . . ما زال يمدو الى الآن . . هل يصل هذا الرجل الى نهاية الفضاء . . والاجابة على ذلك كلا . . اذ أن الفضاء لانهاية له . . فإذا ما نساء لنا وهل يمكن بعد بليون سنة . . والاجابه كلا لا يمكن على الإطلاق اذ أنه يمدو خلف نهاية غير موجودة على الإطلاق ولا يمكن أن تكون موجودة حتى في خيالنا أو تصورنا ومن هنا ندرك أن هناك في الواقع الذى نعيش فيه مقدار لانهاية هذا الفضاء الذى يسبح فيه كوكبنا الأرضى . . منذ خلق . . أو منذ أعلن انفصاله عن الشمس كما يقول العلماء .

والفضاء يحتوى أيضا على كميات لانهاية من المادة . . وقد يبدو هذا الامر غريبا . . وقد يقال لى : أن كمية مادة الارض محدودة . وكمية الشمس محدودة . . و كل نجم كميته محدودة ومجموع الكميات المحدودة تعتبر كمية محدودة . . واذا كانت الكميات التى يحتوى عليها كوكب الارض كمية محدودة . . وكذلك كميات الاجسام التى يحتويها الفضاء اللانهاية محدودة . . فان عدد النجوم والكواكب والاقمار التى يحتوى عليها العالم عدد الانهاية ذلك أن النجوم والكواكب والاقمار منشورة في رحاب الكون أو في الفضاء اللانهاية . . وفي كل ما بقية من هذا الفضاء نجد نجما أو كوكبا . . وهذا ما يثبت باستحالة عكسه . . على طريقة فرويد الابنائية التى يعلن فيها وواقفه في هذا الاعلان أن الحقيقة هي تلك الحقيقة التى تفترض أولا بطلانها ثم تثبت بالبرهان العقلانى بطلان هذا البطلان . وهو يقضه ما يردده المثل العاوى من أن نفى النفى اثبات . . ونفس هذا المنطق . . نحن نفرضي أن هناك جد فاصل كل ما يمدو يخلو من المادة . . وليكن العلم واليقين

يؤكد لنا أن هذا الحد باطل وغير موجود ، وبالتالي يثبت بطلان هذا الافتراض الأخير أو يتثبت بطلان البطلان وتثبت معه الحقيقة القائلة بأن الكون لانهاى فى حجمه ولا نهائى أيضا فى كمية المواد التى يحتوئها ، وهذا ما يجيب أن يعبه كل حى يدرك ، ثم بعد ذلك يذكر ليدرك حقيقة فى هذا الكون وحقيقة مبدعه ومبدع الكون معه وفى ذلك فقط تكمن قيمة الجناء وأهميتها .

الله . . . وكيف لم يبدأ ٢٠٢٠٠

لا شك أن العالم الذى نميش فيه عالم عام بالنسبة لنا ، إذ أنه يحتوئها داخله ، ويحتوى معنا قدراتنا وقيمنا ومستقبلنا الحقيقى .

كما أنه لا يمكن بأى حال أن نجد فى رؤوسنا عقول تفكر وتدرك وتمى ثم لا نستخدم هذه العقول فما يجلب لنا النفع ويدفع عنا كل ضرر ، وما من شك فى أن الحاضر السعيد شئ هام يسعى الانسان لتحقيقه بكل ما أوتى من قوة للعقل والتفكير ، كما أنه ليس هناك أدنى شك فى أن المستقبل الحقيقى شئ هام ، يجب على الانسان أن يسعى لتأمين نفسه فيه بكل ما يملك من مقدرات .

وكما ذكرت سابقا فان النظرة العقلانية إلى العالم هى ضرورة واجبة تفرضا علينا طبيعة وجودنا فى هذا العالم ، وليس شيئا نستطيع أن نتخاذه أو نرفضه تبعاً لموانا أو مزاجنا الشخصى ، وأول ما يسمى أنظارنا فى هذا العالم أو أم ما يستبرهيه ، تلك الحقيقة الهامة التى يبتها بالتفصيل فى الفصل السابق ، وهى أن العالم الذى نميش فيه عالم لانهاى من حيث حجمه كما أنه لانهاى من حيث كمية المادة التى يحتوئها .

وإذا كانت النظرة العقلانية إلى العالم ومن فيه قد أملت علينا أن نؤمن

وجود إله قوى قادر ، خلق تلك المواد وأخضعها لنظام دقيق فلا بد بداهة أن نعلم نحن أن هذا الإله القوى الذى خلق كميات لانهاية من المادة فى فضاء لا يهائى ونظم هذه المادة فى الفضاء الانهائى وفق أسس وقواعد تنظيمية ، معينة لا بد بداهة أن نعلم أنه هو أيضا لا نهائى فى قوته وفى عظمته وإذا كنا نعتبر أن حجم الفضاء مقدار لا نهائى ، فان الاحداد التى يمكن أن تكون منتشرة فيه ، أيضا مقدار لا نهائى ، وتكون كمية المادة التى تحتوىها النجوم وتلك الأقمار مقدار لا نهائى .

وهذا هو المهم ، بل هو أهم شيء يجب على الانسان أن يتدبر به فى هذه الحياة ، إنك أيها الانسان تعيش فى كوكب الأرض الملقى فى الفضاء وحولك فى هذا العلم كميات لانهاية من المادة أوجدها الخالق العظيم من لا شيء . ثم أخضع ما فيها من جاد لنظم معينة وجعلها تسير على قواعد وأسس ثابتة . ثم أوصى والمهم القرائن فى الاحياء من خلقة .

ونحن تؤمن به ، لان النظرة العقلانية إلى الكون وإلى دقائقه تجعلنا غملى به يقينا ، حتى لقد نود أن نفنى الحياة بكل لحاظها فى طاعته ، وبقى لنود أن تتحول كلية إلى طاقة من الشكر ومن الحمد والثناء الجليل لربنا وهولانا . وفى الايمان بالله ربنا حياة ، وسعادة للحاضر ، وأمن للمستقبل الحقيقى الهى يجب إن ننظر إليه باهتمام وحنانية .

ولقد نحمد المولى القدير ونشكره على أن أوجدنا من العدم وعلى أنه أخضع العالم المادى من حولنا لاساسات ونظم تتيح لنا الحياة الواحدة السعيدة . ولكننا نحمده جل وعلا أكثر وأكثر لانه هدانا إلى نوره ، ففتح بذلك طريق السمو بعبادته ، طريق الشرف بالتذلل إليه ، وإلى ما لا نهاية ، ولقد أطبل التأمل فى كل ذلك دون أن أدرك منه ، فهذه الصورة الغريبة التى أيقن

ويعتق بها عقلنا الانساني وآمن بها ، وراجا أعلم عينه ولمسها الإنسان لمساً
وبكل حواسه .

كميات من المادة موجود في هذا الكون ليس لها نهاية ، وتجزئ الأرقام
عن تحديد كميتها ، ونحن أيضاً مادة تعيش كجزء محدود بالنسبة للكل الإلهي .

ونظرتنا العقلانية إلى العالم تملن لنا أنه لا يمكن أن توجد ذرة واحدة
من المادة من لا شيء وتملن لنا أن هناك خلقاً قوياً كبيراً قد خلق كل هذه
المواد . وأوجدناها من العدم .

كما أن ما نجهه من نظم ثابت تسير عليه جمادات الكون ومواد الطبيعة
يؤكد إيماننا ويزيده إذا أنه يجعلنا نعتقد أنه لا بد من وجود قوة عليا قد
أخضعت هذه الجمادات لأسس ونظم وقواعد ثابتة .

ولقد نجد الفريزة في الأحياء من خلق ربنا جل وعلا ، إرادة خفية تدفعهم
إلى أشياء نافعة أو ضرورية لوجود الحياة على هذا العالم ، فيشتد إيماننا بالله
تعالى ، حتى يبلغ من القوة أقصاها ، أو نحن نحس أن يكون كذلك .

ولقد أسمع من كثير من الناس منكراً من القول وزوراً وباطلاً وبهتاناً
وإعجاباً مبيناً ، فهناك منهم من يقول : آمنا بالله هو الذي خلق السمكون ،
وأنت تقول أنه ما من شيء يوجد من العدم ، وإذن فن هو الذي أوجد الله
من العدم إذا كان الأمر كذلك .

ولا يحب أن أحكم مواطني في الأمر ، وأن أجيب هؤلاء إجابة منطقية .
مستخفناً على الذي وهبني إياه خالق العظيم ، ومستوحياً من نظري العقلانية
إلى الأمور ، وإلى العالم ومن فيه ، ولقد يكون من الضروري أن تطرح على

بساط البحث من اللاهوت ، وصريحاً هو : بدأ الله ، وهل بدأ منذ ألف سنة ، أو منذ مليون سنة ، أو حتى منذ ألف مليون سنة .

وهل من الممكن أن تخيل لحظة مرة في مسيرة الزمان لم يكن فيها الله موجوداً ثم بدأ بعد مرورها ، هذا هو جوهر الحقيقة وهو الالم في وجهة نظري والذي يجب أن تدرك فيه قبل أن يضل وقبل أن نهمل ، والحقيقة التي يجب أن يدركها كل إنسان أن الله جل وعلا لم يبدأ ولن ينتهي ولا أقدر ذلك بمزاجي . ولكنها الحقيقة التي تظهر نفسها بوضوح وتبرهن على وجودها بما لا يدع للشك مجال وأود أن تدرك الانسانية جمعاء أن قيمة الانسان الحقيقية هي في كونه لا ينتهي أبداً ، أي أنه يخلد ، وإذا كان الانسان ينتهي فانه لقيمة مطلقاً لكل جهوده التي يبذلها في حياته ، ولكل ما يحققه فيها .

ولكننا نؤمن بأن الانسان يخلد ولا ينتهي بمعنى أنه يحيا بعد موته ثم يعيش إلى ما لا نهاية ، ولقد يقول لي قائل إن الخلود أمنية تمنها الانسان منذ الأزل ، وحققها له رسالات السماء لكنه ما حققه . يشك صدق هذه الرسالات ، ويشك في صدق تحقيق هذه الأمنية .

وأقول ، أنه بالرغم من أن العالم في عصرنا هذا يقامونه ويماتون معاناة شديدة من المرض والجوع والخطو ، وبالرغم من أن رجالات العلم يخوفون الانسانية من نجاعة شديدة لا تبقى ولا تدوم ، وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من الناس يدعى أنه يمكن للانسانية ما لا نهاية :

وأود أن أذكر أنه اذا كان الانسان يأمل في الحياة إلى ما لا نهاية رغم أنه يدرك أن هوامل الفناء في هذه الحياة قد انتصرت على كل من حقيقة من البشر ، وأنه حتى ولو انتصر على هوامل الفناء فإنه سيهتوت جوعاً ، أنه أن

موارد العالم النهائية تكاد تضيق عن أجيال البشر . . فكيف لا يثق لنا أن تمخيل أن الله الذي يؤمن به . والذي سيرجعنا أحياء بعد الموت سيخلدنا في الدار الآخرة لنعيش الى ما لا نهاية .

ولا يصعب علينا حينئذ أن ندرك أن كل المخلوقات قد بدأت وأن الإنسان قد بدأ ولن ينتهى . . وأن الله الذي خلقه لن ينتهى وهو لم يبدأ وكذلك فأننى أستطيع أن أقول بثقة واطمئنان أنه مادام كل شيء في هذا العالم قد بدأ . . فلا بد من وجود آله خالق يخلق هذه القواعد ويرتفع منها لم يبدأ . . ولم يخلق .

ذلك أننا لابد أن تؤمن بأن الله وهو سر هذا الوجود والقوة العظمى فيه لا بد أن تؤمن أنه لم يبدأ ذلك أن الله الذى خلق كميات لانهاية من المواد ويمتلك قدره لانهاية على الخلق لابد ان تؤمن انه يخالف لطبائع الأمور التى اعتدنا نحن عليها .

كذلك فنحن نؤمن في هذا العالم ان الماده لا تفتى ولا تستحدث ونعتبرها بدينية . . ونعتبر أنه من أبعد المستحيلات أن يفتج انسان أو أى كائن من الاشياء شيء وبدون وسيلة لكننا مع ذلك نؤمن أن الله أوجد من الاشياء مادة وهوون وسيلة . . وليس الأمر قاصر على ذلك بل نحن نؤمن ان الله خالق من الاشياء كميات لانهاية من الماده .

وهذا بالطبع ما يعجز الانسان حتى عن تصوره أو تخيله . فالله جلت قدرته قد تحول بقدرته وبدون عناء . . الاشياء ان الفراغ المطلق إلى كميات مادية لانهاية لها . . ولا تستطيع الارقام ان تعبّر عنها . . أو عن حجمها . ذلك يدل دلالة قاطعة على أن ذلك آله الكريم خالف للحوادث ولما جرت مجرىها فاعتدنا . . وإن ينتهى .

فإن الله الذي خلق كميات لانهائية من المواد . هو أيضا لانتهائي في قدرته .
لانهائي في عظمته لم يبدأ ولن ينتهي والبدأ والانهاء أشياء عهدناه في العالم وفي
طبيعة الأشياء . فهما كان النهر طويلا . فلا بد له من منبع ومصب . ومهما كان البحر
متسعا فلا بد له من حدود لكن الله مولانا أجل من ذلك وسبحان الله عما يصفون

الله وكيف لم يخلق . ٢١

وأعود الآن إلى السؤال المجيب الذي برده أناس يزعمون أتباعهم
للمنطق الصحيح ولكل ما يستقيم مع طبائع الأمور . . . يزعمون احترامنا
لإنسانيتهم وتقديرنا لها . . . وم في الواقع على النقيض من ذلك أنهم يقولون :
آمنّا بأن الله هو الذي خلق الكون . . . وأنت تقول أنه ما من شيء وجد من
العدم . وإذا فمن هو الذي أوجد الله من العدم إذا كان الأمر كذلك .

وأقول لهم يا أذهياء المنطق آمنتم بأن الله هو الذي خلق الكون . . ومن
فيه من الأشياء . . . وأنه مخالف للحوادث . . فكيف ينبغي من فطنتكم أنه
أيضا لم يخلفه أحد لأنه جلا وعلا مخالف للحوادث . . ولكل ما عهدناه من
طبائع الأمور .

فعهدنا بطبائع الأمور أن لكل شيء خالق أو صانع . لكن الله جل وعلا
مخالف لما عهدناه من طبائع الأمور . . وليس له خالق أو صانع . . ثم كيف نقر أن
الله يخلق من العدم مادة وكميات لانهائية منها وهذا مخالف لطبائع الأمور
ولما عهدناه عليه منها . . إذ أنه ما عهدناه من طبائع الأمور إن الإنسان أو أي
كائن حي لا يستطيع أن يوجد من الأشياء شيء وبدون وسيلة . . لكن الله
العظيم جلت قدرته خالف ما عهدناه من طبائع الأمور وأوجد من اللا شيء
أشياء عظيمة . . ومواد لا متناهية وبدون أية وسيلة أي بقدرته وحده وكيف

نقر ذلك ثم لا نقر أن الله يخالف لطبائع الأمور من حيث أن لكل كائن حي
سانع ولكنه جل وعلا ليس له خالق أو صانع ، ثم أنه مما يستقيم مع المنطق
الصحيح أن الكائنات كلها قد أوجدت وخلقت فلا بد أن يكون هناك من
خالف القاعدة العامة من حيث أنه لم يوجد أحد ويكون هو الذي أوجد
الكائنات جميعها من طير وسمك وحيوان وإنسان .

ثم أقول إننا نؤمن بإيماننا كاملاً بأن الله الذي خلق الكون ومن فيه
لحظة زمنية ، لم يبدأ ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك على الإطلاق أية لحظة
زمنية ، كان الله فيها غائباً ، ومعنى آخر ، أنه جل وعلا موجود في كل زمان ،
ولم يكن هناك زمان يخلو من وجوده جلا وعلا .

وإذا قلنا هناك على الإطلاق مكان منطقي لأن يسأل الانسان عن
خالق خالقه ، ذلك أنه لم يبدأ فكيف تسألني من خلقه أو من أبداه .

أقول لكم : يا دعياء المنطق أنه لم يبدأ على الإطلاق ، وتصرون على
سؤال من أبداه أن هذا شيء عجيب أنكم تعبدون إلهاً خلقكم جميعاً من
لا شيء ، وخلق معكم مواد العالم اللامتناهية كمية وجهها ومقداراً من لا شيء
كما نضم أجيالكم ، وجعلها تنمو ، وخلق في هذا العالم لكم فرصة عادلة للحياة
كما جعل وخلق فيها فرصة أكملة للموت تعيشون ما شاء لكم الرحمن ثم
أنتم هوبون .

كما أوجه إليكم ككائنات حية ، غرائز وإلهامات ، تدفعكم دفعا إلى
الحفاظ على وجودكم إنكم تعبدون إلهاً لا نهائياً في قدرته وفي عظمته (يخالف)
لحيواته لم يبدأ ، ولين ينهي ، فيسبح الله عما يصنعن ، وهناك أيضا من
يظن في الفسلفة والاثم : سائلا أو متسائلا أو ليس من المحل أن يكون هنالك

إلهان أو ثلاثة قد استمرسرا في خلق الكون وتشييده ، من العدم وم جيا
 الخلقون للحوادث ، وعلى درجة عظيمة من القوة والعظمة ، وأقول لأدعياء
 المنطق مرة أخرى : لا تسرفوا في الضلالة واللام ، أنتم تؤمنون بأن هناك قوة
 لانتهائية حية قد أوجدت هذا الكون ومن فيه ، هي قوة الله جل وعلا وأنتم قد
 أدرستم إن ما نعينه نحن بأن هذه القوة لا نهائية إنها قوة لا نهاية لها وهذا
 أيضا يخالف للحوادث إذ أننا نؤمن أن قوة الله ليست كنسبة محدودة ولكنها
 كنية لا نهائية بمعنى أن الأرقام تعجز عن تقدير أى نسبة منها مهما كانت ضئيلة .
 وبمعنى أن الأرقام مهما كانت كبيرة لا تمثل منها إلا الصفر وإذا سألتهم لماذا
 نعتقد نحن ذلك ، لكان جوابي لأن هذه القوة قد أوجدت من اللاشيء شيئا ،
 أو مادة حية ، وهذا في حد ذاته ما لا يستطيع الاتيان بها إلا من يتصف بصفة
 خارقة هي قوة اللانتهائية ، وعدم البدء وعدم الانتهاء ، وإذا فاقه الذي يخلق
 كميات لانتهائية من المادة . لم يبدأ ولن ينتهى ، ذو قوة لانتهائية وعظيمة لانتهاية .
 وأقول لأدعياء المنطق : مامعنى أن نصف الله ربنا بالقوة اللانتهائية معناه
 أن الله يملك في هذا الكون اللانتهائي قوة يضيق عنها الكون النهائي وأمعنى
 بذلك أن قوة الله جل وعلا ليست كمية محدودة ولكنها كمية لا متناهية .
 معناه هذا الكون اللانتهائي فيسيطر عليه وعلى من فيه سيطرة كاملة . وأقول
 لأدعياء المنطق إنكم تدركون أن الكون لا نهائي ، وإن أى قوة محدودة
 تعتبر صفرا بالنسبة للكون اللانتهائي وإنه يستطيع السيطرة على هذا الكون
 اللانتهائي إلا قوة لا متناهية وأنه لو كان هناك ألف إله لكل إله قوة محدودة
 لما استطاعوا معاً أن يسيطروا على هذا الكون لأنه لو كان لا نهائى .
 أما أن يكون هناك إله واحد ذو قوة لانتهائية فانه يستطيع وبسهولة السيطرة
 على هذا الكون ومن فيه ولله يقول لي أدعياء المنطق : ولما إذا لا تفهمون

أربعة أو خمسة آلهة لكل إله قوة لا مناهية .. وحينئذ يكون نجواي : أن القوة
اللامتناهية التي يتصف بها الله القدير .. تضم كل الكون وتسيطر عليه ومن
ثم فانه لا يمكن بحال أن تشاركه في الكون قوة أخرى .. وأن معنى قوة
لا متناهية إنها قوة غير محدودة .. أو أنها تسيطر على الكون الغير محدود .
ومعنى ذلك أن قوة أخرى لا يمكن أن تعمل لها إلا الصفر .. ومعنى ذلك أن
الله واحد لا شريك له في عظيمته أو في قوته .. إذ أن قوته وعظيمته لا نهائيا
نطلب صفوه ورضاه ولا نخشى إلا إياه .

كما أننا إذا تصورنا هناك إلهين في هذا الكون .. ولكل إله قوة ولكل
إله خلق .. لما استحال علينا أن نتصور أن يذهب كل إله بخلقه ويسم فيهم
شرائع ويأمرهم بأوامر .. ويكلفهم بتكاليف يختلف محتواها عن فهمه من
الآلهة .. ولما استحال علينا أيضا أن نتصور أن تدب اختلافات بينهم .. أن
يحارب الواحد منهم الآخر حيث نحن بين هذا وذلك .. وهذا ما لم يحدث
وما لا يمكن أن يحدث :

يسر ذلك أن الله جل وعلا قد أرسل رسله بالبينات والهدى دائما إلى
عبادته وحده مبيّنا لنا وهو الصادق القوي إنه واحد لا شريك له .. وإذا
يا عبادة الله قوموا إلى ربكم عابدين شاكرين .. ساعين نحو سعادة مستقبلكم
الحقيقي .. تاركين وراءكم أديعنا الملقن والفلسفة إتباع الجدل العقيم
والتمسطة الكلامية .. يتلاعبون بالألفاظ والعبادات .

يرجى في قولنا : أحدهم باللامنة أنت مؤمن أن الله على كل شيئا قدير . قول
يرجى في قولنا : أحدهم باللامنة أنت مؤمن أن الله على كل شيئا قدير . قول

الأعراب ، فكلامك لا محل له من المنقول إذ كيف تطلب متى أن أتصور أن الله وهو قوة عليا في الكون قوة لا نهائية حية تعقل وتسمع وتبصر وتقدر وتدبر ، وتسيطر على الكون كله ، بالرغم أن الكون لا نهائي في حجمه وفي كمية المواد التي يحتويها ، ويدبر كل شيء في الكون رغم أن الكون لا متناهي فيحسن تدبيره ، وتقدير كل دقيقة في الوجود رغم أن الوجود لا متناهي فيحسن التدبير .

كيف متى أن أتصور قوة الله العظيمة الموجودة في كل الوجود والموجوده في كل زمان ومكان ، فليس هناك مكان تسب تطيع منطقياً أن تقول أنه خال من قوة الله وليس هناك من زمان خلا أو يخلو أو سيعلو من قوة الله العظيمة ، كيف تطلب متى أن أتصور أن هذه القوة تعجز عن فعل شيء ما ، هذا ما لا يمكن أن أتصوره ، ليسكن الحق والمنطق يا أدمعاه المنطق أن الله على كل شيء قدير .

ثم ، إنه لو كانت قوة الله تخرج من الكون ، لما كان الله إله يستطيع كل شيء إذ أن القوة المحدودة لا تستطيع السيطرة على العالم ، ولكن سبحانه الله عما وصف ، والله القوة اللامتناهية التي لا يخلو منها أي ذرة من أي مكان من هذا الكون ، الذي لا أول له ولا آخر ، وأخيراً ، هل يليق بالإنسان أن يتجدي خالقه وخالق الكون معه ويقول له إذا كنت على كل شيء قدير فهل أنت قادر على الخروج من الكون ، أنه الجدل العقيم الذي لا يجدي ولا يفيد وأنها السفسة الكلامية التي لا قيمة لها إلا قيعة جالبة ، فهي تهدد الطاقات وتحطم إرادة الخير في العالم وتقتل منه كل ما نبعث خيره ليحل محله أشواك الشرور والأذى ولا أدري لماذا كل هذا ، لماذا الجدل العقيم لماذا السفسة الكلامية ، وما الذي يدعونا لها وطريقنا واضح لا هوج فيه ولا تنال به

نحن نحرص على مستقبل آمن ونفكر ، نحن نجد حولنا الكون يحفل بالمادة
ونفكر نحن ندرك أن الشيء لا يمكن أن يوجد من اللا شيء أو من ذات
اللا شيء ونفكر ولستنتج ، وحينئذ نقرر الواقعية والمنطق صادقين أن لا بد
من وجود قوة عقلية قد أوجدت المادة التي نحن منها ، ثم نفكر وننظر
للأمور نظره عقلانية وذلك كما يثبت سلاحنا الوحيد الذي نجا به به تحديدات
الزمان ، ونجد حولنا في هذا العالم كنهياً من الجمادات تخضع للأجسام
ونظم وقواعد ثابتة لا تتحيد عنها ، رغم أن ماعدها من طبائع الأمور أن الجماد
ليست له أى إرادة لا بالنسبة لنفسه ولا بالنسبة لمن عداه وحينئذ نقرر أنه لا بد
من قوة عليا قد أوجدت هذه الإرادة أو قد منحت هذا الجماد إرادة بالنسبة
لنفسه أو إرادته بالنسبة لمن عداه كما نجد حولنا وفي الكائنات الحية على وجه
الخصوص إرادات لا تتبع من جهازها الإرادى ، ورغم ذلك فهى ضرورية
للبقاء الكائنات الحية وضرورية لاستمرار نوعها ، وحينئذ ندرك إدراكاً
وقيقاً أن الذى أوجد هذه إرادات قوة عليا وأن الذى خلق الالهامات والفرائز
في الأحياء قوة حكيمه عليا هى قوة الله الحكيم ، وحينئذ نؤمن وتيقن من
وجود خالق السماوات والأرض ، ووندغ جانباً وسادس شياطين الانس والجن
ندوا فتراهم الاتيين منهم .

المصير

في المصير ندرك في الجانب من كلغة ، وهذه الحكمة الحاسمة التي تفرق في حقيقة
الأمور بين الشر والباطل والافساد ، وبين الايمان والخرقة ، بين ذلك الذي
منه يشرق حياة قلوبها النكر والتمسدة ، من نور قوامها النور والنداع ، أو قوامها
الظلمة والخرقة وبين ذلك الذي يستقبل بالجهنم والفرق والدم يستهينا بالالم
مدمر مواضعه ، فيم يملئ الشهوة والحق ، والوقت بالجنس الانساني إلى درجات عليا

المصير ، وإياها من كلمة ، هذه الكلمة التي تفوق بحسم وجلالة ووضوح
بين أولئك الذين هبثوا بمقدرات شعوبهم وبقيم أمتهم حتى أخذتهم نشوة
السكر والعريضة أو الذين شرروا من دماء الأبرياء حتى أحمرت عيونهم
وانتفخت أوداجهم أو الذين هاشوا حياة سعيدة ورعدة على أشلاء الأبرياء من
بنى جدتهم ، وبين الذين باعوا أنفسهم وجادوا بالدم الذكي وبالروح والمهجة
في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا وفي سبيل أن يكون الدين كله لله ، وفي
سبيل حرية أوطانهم ، وعزة بلادهم ومجدها ورخائها (وكلمة المصير) .
تعنى للإنسان شيئاً هاماً بالغاً في أهميته أقصاهما ، ذلك أنها تحمل له معنى
الامل ، ولولا الامل ما سكننا وما كانت لنا قيمة فالامل يفتح أمام الإنسان
أبواب العمل والامل بحث الإنسان على الاستبسال ، في مقاومة الأمواج
الباطلة التي تتكسر تيمناً على صخره الحق الصامدة ، الاستبسال في مقاومة
المواقب الآتية والرياح العنيفة التي ما فتأت تهب بسموها على سفينة الحق التي
تحمل أتباع الحق وعباد الرحمن الواحد الاختصاص وتجرى بهم فوق طوفان
الضلالة الذي أفرق القرون العشرين بأمواجه ، وتجرى بهم الله بحجوبها
ومرسبها إلى الأرض الأمان إلى كلمة المصير حيث يجد أولئك الذين أحبوا
الحسنى وحيث يضج بالذاب من ضل سواء سبيل ، ونحن نعيش بالامل ونشهد
منه سعادتنا كما نستمد منه القوة والعزم والصمود ، وسعادة الحاضر بدون
أمل لا تعنى للإنسان شيئاً هاماً لا قيمة له نفق هذه الكلمة في خد ذاتها
كلمة مطاعة وغير محددة فأين هي سعادة الحاضر لو ما فر الطريق إليها ، ونحن
يسلك الإنسان إليها طريق الدل والثروة ولا أحرف المال قيمة تزيد عن ثبوته
وسيلة لا بد منها لتأني لا غنى عنها أسمى وسيلة للحصول على تقديرات الحياة
ولقد محتطب ألسن كاذب أو يقنع نهاره تحت أوجع الشيطان قلبه ما يلبد وقته

ورمى أولاده ، لكننا نحمد سيماء بهذه الحياة راضياً عنها بدرجة تزيد من ذلك الذي قد يؤذيه من الحرير ويعتبره خشناً وغير رقيق ، ثم حتى لو تحققت مسعادة الحاضر وكانت على أقصى ما تكون أو ما يمكن أن تكون فإن مسيرة الأيام تجري وتجري ويأتي ذلك اليوم الذي يختم هذا الحاضر السعيد وينتهي بمرارة الموت التي نجب ونمحي كل لذة مهما كانت ، بل كل ما سعادة أو سرور شعر به الإنسان في حياته ، تماماً كجماعة من الناس أخذوا بأكلون سكرًا متفاوتًا في كميته فذلك لا يجيد إلا الفئات وذاك يأكل حتى يموت ، ثم فرض عليهم أن يختتموا كل ما أكلوه بشراب مر من الصير أو من العلقم يذهب كل ما كانوا قد تذوقوه من حلوة السكر ويشعرم جميعاً بالمرارة ، القائمة فلا تفاضل بينهم ولا نستطيع ذلك .

بل انني أرى ويقره على أن من عاش حياة خشنة جادة ستكون مرارة الموت شيئاً ليس عليه بالفريب ولكننا فقط تفوق كل مرارة ذاقها لكن ذلك المر الذي عاش حياة مرفهة ورغداً ستكون مرارة الموت شيئاً غريباً عليه يتجرع كأسها في عالم وأبى يفوق كل خيالاته وكل تصوراته .

والشكل للموت والمرارة قائمة ، والمذاب شديد في لحاظ قادمة . ولا بد أن لكل كائنات حية تلكات بها مسيرة الزمان أن يرد الخوض الذي شرب منه الجلي أو التعلية وتطالعه يعلم ويحسك معنى الخير ومقراه .

ولهمنا المترقون به يشهم قليلاً من عمر الزمان أو قليلاً من مسيرة الأيام وحتى يتسلمهم مسيرة الأيام إلى لحاظ حرجة يتحدد فيها مستقبلهم الحقيق ، وليضحك الضاحكون كثيراً فلا بد يوماً أن يترقوا لسمع فياضاً ولا بد يوماً أن يهت عيونهم اللامعة حين يستلمون جميعاً إلى لحاظ الموت لحظه النهاية ، وليريد

المعربدون ، الذين يحلوا لهم ان يقدوا وعيهم وأن يتجردوا من انسانيتهم
وأن يهربوا من واقمهم فلاحظت المعر معدودة تمضي وسريما ما تمضي
وتسلنا ولا بد لها أن تفعل الى شحنة الحزن الى شحنة الالم الذي تحس منه
بحقيقتنا وقيمتنا .

وفي ظلال الحزن والالم يشعر أولئك الذين انكروا على الانسان حقه في
الثقة كبير والنظر العقلاني أنهم كانوا مخطئين كما يشعر أولئك الذين أغرقوا
أنفسهم في دوامات الجدل العقيم والفسطة الكلامية أنهم كانوا على غير بصيرة
وعلى غير هدى كما يشعر كل من ضيع حياته مدى مستغفباها وبانسانيته معها
بأنه عبث بشيء عمين .. وبأنه ضيع فرصة لن تعود اليه بنفسه وبانسانيته
إلى مراتب كان من الممكن له أن يبلغها لو احترم ذاته الانسانية ونظر إلى
الكون نظرة عقلانية فية بدون عبث وبيعض الاهتمام .. ينهم حيث
لا ينفع الندم ويتحسر ولا تزيد الحسرة إلا مرارة ونالما .

وابدا لا تأسوا ولا تمزنو يا معاشر المفاضلين .. قالنا من الخافض إلا
المعنى والمقيم على الأرض نميد قادرا رحانا .. ولنعملوا بالأقل وبدون
يأس أو قنوط .. فلن يضركم حدودكم بأكثر من الموت الذي سيحرب هو
كاسه لا محلة .. كما أنكم لا محلة شاربوه لا تخفوا جز الشمين ولا تهذوا
برد الشتاء فلن يكون أشد مضاضة على أنفسكم من ألم الموت ومرايته ولتجهشوا
حياتكم بكل لحاظها في جهاد ونضال ، سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة
الذين أنكروا انسانيتهم وقيمهم هي السفلى

وها هي الأيام تمضي وتمر سرافا كيرق خاطف أو كريح طاصف أو
تطير مشروع .. ولحظ العمر يجري كالسحاب .. وكل ما يبدو للعين
بعيد في زمانه يمر مسيرة الأيام ثم حدود وتترك خلفها قري غدنا لربما غدنا

قد غدا أمستا أو قبل ذلك الأمس ، ذريع العمر يمضي وسريعا ما يمضي
 وخريف العمر يأتي وسريعا ما نزاه ، والليل يتلوه نهار ثم يسود النهار
 بظلام الليل وتدق منا القلوب والوقت يمضي ومع كل خفقة للقلب العمر يجري
 ويبدو نهار خلف ليل سابق الزمان ، فالليل يأتي خلصة والصبح يأتي
 بالهن والبركات يدور في حياة مظلمة والظلام يطول نفس مجرمة فلا ،
 لا تركنوا النهار فولا تياسوا من ليل يحلبه نهار والصبح يسود بليل ،
 قد طوى الأمس كباتي لم أكن فيده ، كخيال جامع لا أنس يدربه أو كظل
 ساج لا شيء يحويه ، أو كعبرق عاطف لاح ثم اختفى ، وهكذا
 تقتفي أياي وتزعمثل ذلك تفتني أحلامي وأرى مصيري ويراني ، ولا
 تبددوا أيامكم سدى فبين الزمان الحراء تطاردكم في اليه الظلماء أو في
 قلق النهار ، ومهمة الأيام تسلكم إلى الحافظ القائمة إلى لحاظ الموت ،
 إلى لحاظ المستقبل الحقيق ، وطوبى لكم يا معشر الأبرار في رياض الله
 الذي خلق الأرض ركورها ، خلق الرياح وسيرها ، خلق الطير وصورها
 خلق الأنهار وأجرها ، كل ذلك من العدم ، من اللاشيء من ذات اللاشيء
 ويبدون وسيلة ، وأوجد الضوء والظلام وأوجد النفس للأمام وأوجد الصوت
 والكلام والعلاقات وأضامها ، ولقد نسال أنفسنا كثيرا عن ماهية الطاقة
 فالعزم طاقة أو هو ترددات في الشيء وفي اللاشيء تجعل العين تبصر الأشياء
 ولقد يقول رجال العلم أنها أمواج تخرج من مصدر الضوء أمواج من الطاقة
 ما أن تستقط على العين شيء يؤثر فيها وتعملها تبصر ولكن سبحانه في
 ولما إذا لا تؤثر موجات الحرارة وهي طاقة أو موجات الصوت في العين وتعملها
 تبصر

وتحى الشمس وهي حيا جسد دقيقة ، ملهى ضوءا متوجها بالحرارة

ويُنقل إلينا الضوء دون أن نتنقل إلى الشمس أو نتنقل نحن إليها ويقطع الضوء مسافة طويلة وبسرير إلينا رحلة شاقة وعصية ، يسير فيها اللاشيء ، فكيف باللاشيء تحمله .

ولقد يقول لنا العلم ويقرر لنا رجاله أن طاقة الضوء تسير في الهواء في شكل موجات من مجال مغناطيسي متعامد عليه مجال كهربى ، وأقول سبحانه سبحان الواحد الأحد الحى الذى لا ينام الذى جعل لنا المجال المغناطيسى والكهربى يسيران متعامدان سى وتسعين مليون ألف من الأميال حتى يصل إلى عين الإنسان فيضىء أمامه الحياة سبحان من جعل الجمال المغناطيسى والكهربى المتعامدان يدخلان العين وبكل أمان ويتقلان للانطلاق نور حياته .

ولقد يقول رجال العلم أن فى العين شبكة حساسة الضوء تتكون من أهرام تسمى أهرام مليجى ، وحسنا سبحان من بنى أهرامات مليجى فى كل عين وجعلها حساسة سبحان من وهب الإنسان عقلا ذكيا ، وغينا ترى وأذا تسمع ولسان ناطق فصيح ولقد يسأل الإنسان نفسه ما معنى أن أشعر بالحرارة والبرودة وما هى الحرارة والبرودة وما هى مائة كل منهما ولقد يقول له رجال العلم قولا يفسر له ظواهر الأشياء لكنه لا يعرض إلى أعماق مغزاها ومعناها .

فسبحانك يا عالى خلقت كل هذا وأحسنيت له صنما وقدرت كل شيء فأحسنيت تقديره ودبرته فأحسنيت تدبيره وهذه الأرض تدور حول تلك الشمس من ماضى المهور والحليل ونهار ويخفى ثم يعود تغلظ الليل وبعض نور ما ثم يأتى الصبح والنور يعود ورغم أننا نعلم علم اليقين أن الأرض جماد لا يعقل ولا يملك أية إرادة بالنسبة لنفسه أو بالنسبة لمن عداه وما زال كوكب الأرض يدور حول شحمه بلا حيل .

وما زالت ظواهر النجوم تعطينا طريقا من الآمل .
وما زالت الرياح والأنهار تجري بلا كلل
وسبحانك رب .

الاسماك في البحر ترجو رحمتك وتسعى إلى طعام قدرته لها وطيور الجو
في سماءها تطلب العطاء من غالقها وتخرج غمضا إلى ارضاقها وترجع بطنها
بوزق يادها .

وكل قطرة ماء ، وكل نسمة من هواء أنت غالقها ، وبإسم الله تجري في
السماء أو في الروضة الغناء ، حيث تسقى زروعا أخضر يصفر ثم يصير هشيا تذروه
الرياح وتوقد منه نيرانا نتاجج تشع علينا الدفء وتجعلنا في حيوة .

ولقد يستلهم النبات من قبض رحمة ربي ما يزيد به حبه وإحصاءاته فيحور
أوراقه إلى أشواك حتى يحفظ بذلك مائة من البخر . ويدفن طعاما مرا في
أوراقه حتى يذهب بذلك عن نفسه أذى حيوانات العشب برغم أنه قد يضع
رحيقا خلوا في أزهاره حتى يشرك الثعلب في التخفاظ على نوعه دون أن تدري
ولقد ينصب الاشراك للحشرات يوزقها بحيلة ماكرة حتى يتغذى على جسمها
ويستمد منه عناصر لازمة له .

ولقد تستلهم الأسماك من فضل ربي طريقا طويلا تسير فيه دون ما ضلل
وتعود منه صفارها وكانها قد جليكته من قديم الأزل .

والطيور والحيوان يرعى صفاره ويحنو عليهم من أين ذاك الحنو أو ذلك
الحنان ؟ أنه من الحنان المنان في قلوب الأمهات قد غرسة وعل مر الاجيال
قد أقيم . ولولاها لصارت الدنيا جحما . لكن فهل ربي أبقاء جنة ونميا
في الطير والنبات والحيوان أو أرواحا أو أرواحا وتقبل نحن في حرص على تجديد
أجيالنا بقدره الغامك المشعلا في رزقنا يمانى .

لا شك أن في ذلك لآية أى آية أظهر من الشمس وأكثر منها وضوحاً
فهذه الآتى من السمك تقذف بيضها في الماء بكميات كبيرة ثم يمر الذكر
من السمك ليلقح هذا البيض حتى يصير صالحاً للفقس دون أن يتفقا أو ييرما
المعاديات .

ولقد يعان لنا رجال العلم أن السمك يبيض كيات كبيرة عن البيض لأن
كثيراً منه يتلف أو يموت فقسه وهو صغير ومن ثم فهو في حاجة إلى كيات كبيرة
من البيض ليحافظ على نرعه . ولكن هل أدرك السمك هذا أبداً أنه
لم يدرك جهازه العصبي لا يفكر ولا ينظر هذا النظرة العقلانية إلى واقع
الأمور .

ولكن رحمة الرحمن قد أدركته بنورها الفياض فدفعه دفعا لا إراديا
إلى الحفاظ على نوعه وتجهيد أجياله .

وفي كل شيء للرحمن آية ، في البحر آية ، في السماء آية ، ومع كل قطرة من
قطرات بحار الأرض آية يدل على الحكمة والقادرة .

فهذه ذرة البحر ، الزهية ، تلقى إليها النظر المجرد فتزد إلينا أضداد
الجلال والحكمة ويتوه النظر في الزرة التي تمتد بانسداد من تمتد الزرة أو
تستطيع أو تحيط ، تماماً كما تصح الموسيقى الشجيرة التي تغيب الغصن والوحد
في لغاتها الشجيرة ، حتى لنكاد نرى من خلالها أنفسنا ، وحتى لنكاد أنفما أن
ترانا ، وأن ترى الوجود خبر لنا .

ولقد يقلب الإنسان ناظره في ذرة السماء حتى يطرق به العقل
ولقد يتأمل الأساطير في ذرة هذه السماء ويهاجم في الليل والنهار ، في
الاصيل والدمجى ، ومع إشراق الشمس أي أنظر إلى البحر إلى البحر إلى البحر
الجبل أو غيا ، والعقوى اك يا معتر الأثير ، في راض الله الواحد الأحد .

وكيف ينتظم الجناد وعنه تم — لم بأنه لا يملك على نفسه إرادة ، وليس له على ذاته أى إرادة لا بالنسبة لنفسه ولا بالنسبة لمن عساه ، وحين رأيتم الضوء الذى ينتظم فى جريانه ، وحين رأيتم الأرض التى تجلب نحو الشمس وتدور حول نفسها ، عرفتم إن الله الذى أخضع الجمادات لأسر ونظم ثابته هو الله الذى أوجدهما من العدم .

وحين رأيتم الأسماك تبحر فى البحور عن الطعام ، وحين رأيتم الأسماك تسمى نحو غايات ترام ، وتعود منها لحياتها المستقرة فى سعادة عرفتم أن الله من خلق السماء أثارها ، وتدفعها إلى تبكون كذلك رحمة منه بها ولينفكر أولوا الأبواب ، وحين رأيتم الأنواع والأجناس من كل نوع تتكاثر وتتوالد بنظام ، وانتظام — وبالحام من الرحمن كان . بالناس ، ضلانا على صراط الإله . وحين رأيتم الوحوش وغنم ضراوتها ووحشيتها تحمل الحب والحنان لآبائهم ، وكذلك الثعابين والقرود والإنبيان والأسماك ، كل يطف على مخلوق منفصل عنه وبدون ما إرادة ذاتية منه ولكن يدافع من الرحمن خفي ويدافع منه أعظم من كل إرادات البشر .

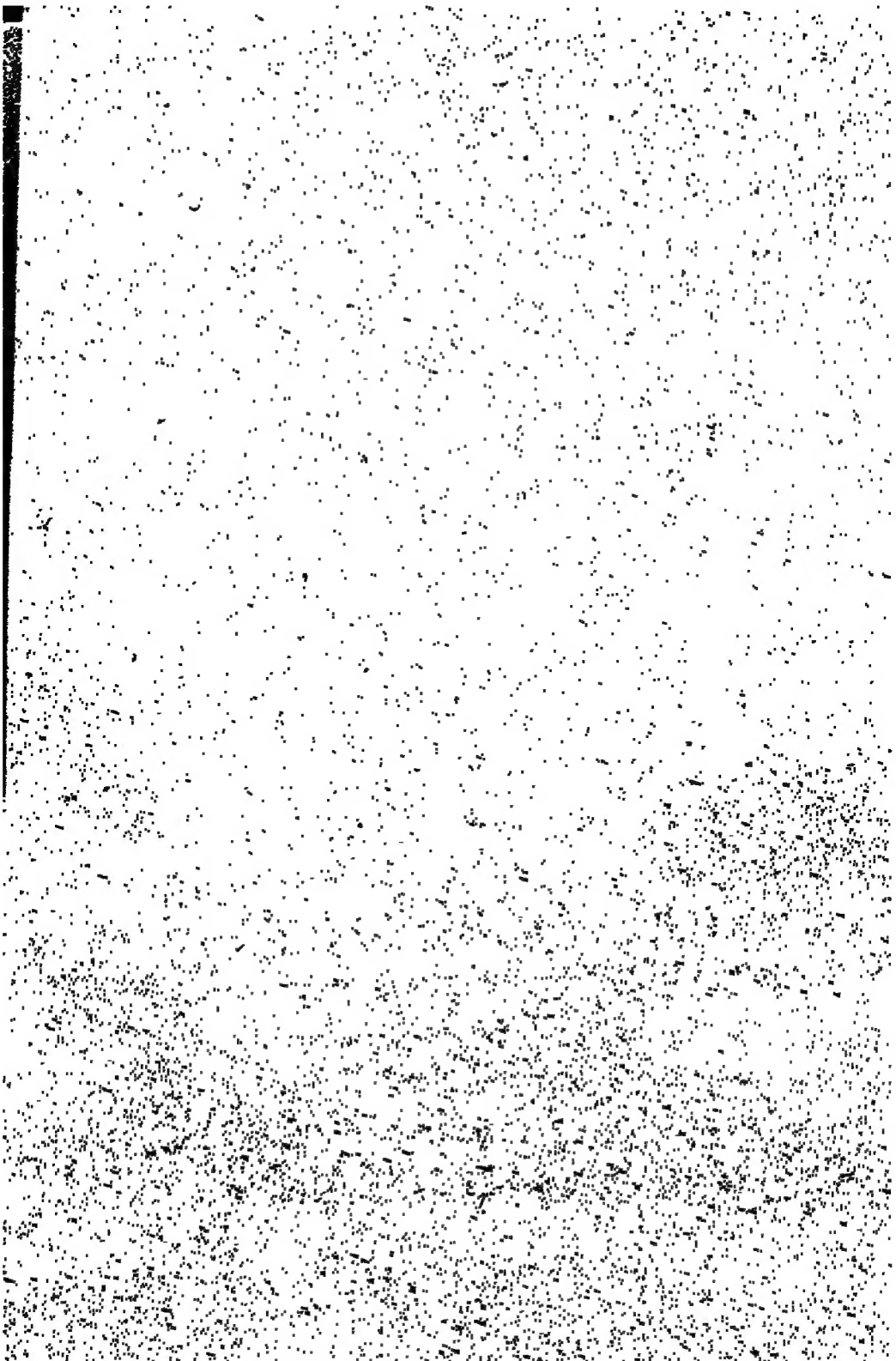
وحين رأيتم كل ذلك آتمتم بالرحمن جل من خلق وعبدوه عبادة بكل ما أوتيتم من قوة وجهد ونصرتهم دينهم وصبرتم على البلى وكأختم فى سبيله وتركتم الشكوى ، وبذاتكم النفس والهم والمهجة رخصتم فى سبيله وفى سبيل رضاه ، نحن لكم الآن وأنتم فى مستقبلكم الحقيق أن تقولوا برضوانه . وأن تعموا بالحمد فى حياته ، تلك الجنات التى لا سر فيها ولا حشود لا م فيها ولا حزن ، وفيها السعادة دائمة والفرح لا يفتت ، فى المودع والوراثة فهبتها لكم ، حياة حاته ، وسلام مقيم وخلود ، خلود أبدا الأنيان فى الأبدان

به فن الآن لن نموت لن قنهي ولن تمرض ولن يصيبك السقم ولن تنك
أو تخور قواك بل انت في عز ورخاء ونعم مستديم لا يزول وهما لا يدانيه
هـ انت الآن تنعم برضاء الله وذلك النعم وذلك المناء هو في واقع الامر
ما أرجوه لكل انسان في هذه الحياة بدافع من حب الانسانية
التي يجب ويلزم أن يضر به قلب وأن يعمل به كل عقل وعلى
صفحات هذا الكتاب .. وبهذا الجهد المقل .. حاولت وسأحاول على الدوام
أن أذكر .. كل من استطع تذكره بكل ما يجب التذكير به أذكر
نفسى واذا كرا لانسانية جما فهذا هو قصارى ما نستطيعه في هذا الزمان
وذلك أيضا كل ما كلفنا به الله جل وعلا حيا لافسنا وحيا لانسانية والناس
أن تذكر والله نبلغ ما نعلم إلى الناس حتى يعملوا بما عملوا ونحن علينا التبليغ
والتذكير ولنا محاسنين عن الناس عملوا أولم يعملوا وعانحن والله
شاكرين قد بلغنا فليشهد الناس والله هو الوكيل ولقد يسمعنني يشرقي
أن أتمثل بقول الحبيب الاعظم والنور الانم الاكل سيدنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب في قوله اللهم أنق قد بلغت
الله فاشهد ؟

مطبعة ومكتبة البرلمان

٧ ملوح التجهاد بالهيئة العامة

٩٠٦٢٩٢





0233540